مسرحية

ليانـدرو فِرنانـدِث دي موراتين

حينَ تقولُ الفتياتُ «نعمْ»

ترجمة : بسّام البزّاز

@ketab_n
Follow Me
5.4.2017

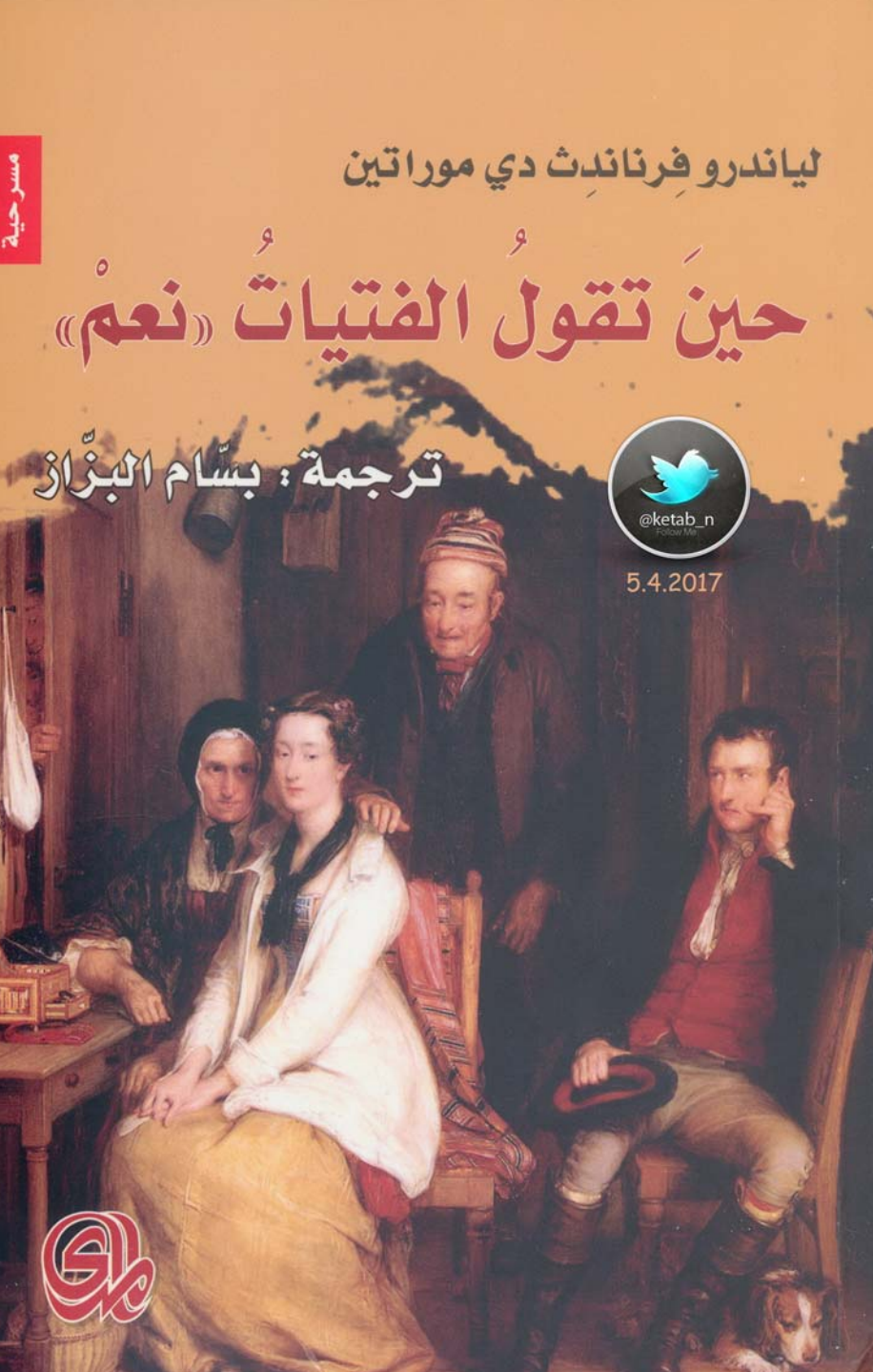

ليانْدرو فِرناندِث دي موراتين

حينَ تقولُ الفتياتُ «نعمْ»

(مسرحية من ثلاثة فصول)

ترجمة: بسّام البزّاز

Twitter: @ketab_n

حينَ تقولُ الفتياتُ «نعمْ»

EL «SÍ» DE LAS NIÑAS

Twitter: @ketab_n

مسرح

Author: **Leandro Fernández de Moratín** — اسم المؤلف: ليانذرو فرناندث دي موراتين

Title: **EL «SÍ» DE LAS NIÑAS** — عنوان الكتاب: حينَ تقولُ الفتياتُ «نعمْ»

Translator: **Bassam Al-Bazzaz** — ترجمة: بسّام البزّاز

cover designed by: **Majed Al-Majedy** — تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada** — الناشر: دار المدى

First Edition: **2016** — الطبعة الأولى: 2016

Copyright © Al-Mada — جميع الحقوق محفوظة

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع لبون- بناية منصور- الطابق الأول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

Twitter: @ketab_n

الفكرة والمسرحية والمؤلف

بين أحلام الشيخ المتطلّع إلى حياة جديدة:

«أتـوق إلى حياة جديدة...سأجدُ مَن تخدمني وترعاني بحب وإخلاص وسنعيشُ كقدّيسين...»

وكلماته الأولى عمّن يمنّي نفسه بالزواج بها:

«صحيحٌ أنّني لم أرَها، لكنّني عرفتُ عنها الكثيرَ من أمّها...وقرأتُ الكثيرَ من رسائلها (...) وحصلتُ على كلّ ما أردّتُ معرفته عن ميولِها وطباعِها...»

وعدم اطمئنانه إلى موقفها منه ورأيها فيه:

«ما أتمنّاه هو أن تصرّح لي برأيها في مشروعِ زواجنا و...»

وتنويه الأم بامتثال البنت لقرارات والدتها:

«إنّها بنتٌ مطيعة ولنْ تتمرّدَ على ما تقرّره أمّها»

مخاطبة العريس بما يفهم:

«ولكنْ أليسَ من المُحزنِ رؤيةُ زيجات اليوم كيف تتم؟ يزوّجونَ

Twitter: @ketab_n

بنت الخمسة عشرَ عاما من صبيّ لا يتعدّى الثامنة عشرةَ، (...) طفلانِ غريران بلا عقلٍ ولا تجربة... فمن ذا الذي يدبّرُ شؤون البيت؟ وعلى من تقع مسؤوليّة تعليمِ الأولادِ وتقويمِ الاعوجاج؟»

والعروس بما تشتهي وترغب:

«ستكونين يا ابنتي كالسمكةُ في الماء؛ ولو تشهّيت طيورَ السماءِ فستحصلينَ عليها...»

من دون أن تنسى أن تحثها على الكلام وتعنّفها على سكوتها وتمنّعها:

«ألا تقولين شيئا!...هلاّ رددتِ عليّ بكلمة...!»

وتقف البنت مشتتة الفكر حائرة القلب والهة الفؤاد لا تجد من تبث إليه حزنها وتستودعه سرّها غير وصيفتها:

«لو أنّك رأيتِ أمّي... إنّها مصمّمة على أن أحبّ ذاك الرجل... لو أنّها تعلم ما تعلمين لما طلبت منّي أشياء مستحيلة...»

لكن المستور سرعان ما ينكشف، والأوراق سرعان ما تختلط لتظهر الحقيقة ويعود الحق إلى مثابته. فيثور الشيخ في البدء:

«ألومُ مَن؟ وأصبّ غضبي على مَن؟»

ثمّ يتراجع ويتأمّل:

«أهذا هو ما ندعوه تربية الفتاة تربية جيدة؟ أن نعلمها الكذبَ والخداعَ والمداراة على مشاعرها البريئة...؟»

Twitter: @ketab_n

قبل أن يصغي إلى منطق العقل ويقرّ بما يسكن ضميره من تعقّل وخبرة بالحياة وبالناس:

«كان هو وابنتك يهيمان حبّا، بينما كنتِ أنتِ وخالاتها تُشيّدنَ قصورا في الهواء وتملأن رأسي بالأوهام... هذه هي عاقبة تعسّف الآباء ... وهذا هو الظلم الذي يحيق بالشباب... وهذه هي الضمانات التي يقدّمها أولياءُ الأمور... وهذه هي نتيجة الركون إلى كلمة «نعم» التي تقولها الفتيات...لقد تنبّهتُ بالصدفة، وفي الوقت المناسب، إلى الخطأ الذي وقعتُ فيه... فويل للذين لا يتنبّهون إليه إلا بعد فوات الأوان!».

***

بهذه الفكرة الإنسانية البسيطة، وبهذا الأسلوب السهل يسدل الكاتب المسرحي الأسباني الشهير ليأندرو فِرناندث دي موراتين (١٧٦٠- ١٨٢٨) الستار على قمّة أعماله المسرحيّة وخاتمتها: حين تقول الفتيات «نعم».

لكنّ موراتين، الذي عُدّ أبا المسرح الإسباني الحديث، كان تطرّق إلى الموضوعة ذاتها في باكورة أعماله المسرحية (العجوزُ والصبيّة) El viejo y la niña قبل ذلك بنحو ستة عشر عاما، مما يوحي بأن الإشكالية الاجتماعية تلك كانت تمثل في ضميره هاجسا مؤلما يحاول التذكير به واستئصاله.

لم يكن موراتين ثائرا على تقاليد المجتمع البالية وحسب، بل كان هذا ديدنه في الشأن الأدبي كذلك. فقد وُصم ونظراؤه من

Twitter: @ketab_n

الكلاسيكيين المجددينneoclásicos بالفسوق والمروق والخروج عن أعراف المسرح والضرب بها عرض الحائط.

يذكر مؤرخو الأدب أنّ المسرحيّة لقيت نجاحا باهرا لم تلقه مسرحية غيرها خلال الأربعين سنة التي سبقت عرضها في الرابع والعشرين من يناير/ كانون الثاني ١٨٠٦.

واليوم، وبعد قرنين من الزمان، نفتح لكاتبنا المسرحي الاجتماعي الاسباني كوّة يطلّ منها على قارئنا العربي ويعرض من خلالها فكره ورأيه حول المسألة التي طالما شغلت باله. نأمل أن تنال الترجمةُ رضى القارئ وأن تكونَ له فيها تذكرة بأن كثيرات من بنات جلدته ووطنه ومجتمعه ما زلن، بعد كلّ التقدم الذي حصلَ والإصلاح الذي طرأ والمواعظ التي قيلت، يعانين ما عانت منه الأسبانيّة «فرانثيسكا» قبل نيّف ومئتي عام.

المترجم

Twitter: @ketab_n

تنويه حول الطبعة المعتمدة

حين شرعتُ في ترجمة هذه المسرحية قبل سنوات ستّ عملتُ في طبعة وجدتها في مكتبة المركز الثقافي الإسباني بدمشق، ربّما هي لدار النشر الإسبانية المعروفة Cátedra. وحين عزمتُ مؤخرا على مراجعة الترجمة ووضعها في صورتها النهائية كان من سعيد طالعي وحسن حظّي أن عثرتُ بنسخة إلكترونية من طبعة تضمّ اثنتين من مسرحيات موراتين هما: (الكوميديا الجديدة) La Comedia Nueva و(حين تقول الفتيات «نعم») El Sí de Las Niñas. هذه الطبعة هي من صنعة خيسوس بيريث ماغاليّون Jesús Pérez Magallón تحقيقا وملاحظات، وتقديم اللغوي الأكاديمي الاسباني الكبير فرناندو لاثارو كارتير Fernándo Lázaro Carreter، وهي موجودة على رابط المكتبة الافتراضية ميغيل دي ثربانتس التالي على شبكة الأنترنت:

http://www.rae.es/sites/default/files/El_si_de_las_ninas_Moratin.pdf

أمّا سبب اعتمادي هذه الطبعة مصدرا نهائيا للترجمة فهو إشارتها إلى العديد من الفقرات والعبارات التي وردتْ في طبعتي ١٨٠٥ و١٨٠٦ و لم ترد في الطبعات اللاحقة، فضلا عن الكثير من الملاحظات

Twitter: @ketab_n

والتوضيحات اللغوية والعامة المتصلة بلغة القرن الثامن عشر والعادات الاجتماعية السائدة آنذاك، وفي ذلك كلّه ما يغني الترجمة ويزيدها وضوحا. وقد عمدت إلى وضع الفقرات والعبارات الإضافية الواردة في الطبعتين المذكورتين بين حاصرتين [ ].

المترجم

Twitter: @ketab_n

الشخصيّات

- دون ديِغو
- دون كارلوس أو دون فيليكس
- دونيا إيرينه
- دونيا (فرانثيسكا) أو (باكيتا) أو (كورّيتا)
- ريتا
- سيمون
- كالاموتشا

• وجود أكثر من اسم لبعض الشخصيات هو إمّا لدواعي الدور، كما هو الحال بالنسبة إلى (كارلوس)، وإمّا لاستعمال صيغ عائلية أو تودديّة من الاسم، كما هو الحال بالنسبة إلى (فرانثيسكا).

• كلمة (دون) Don في الاسبانية تسبق اسم الرجل، بينما تسبق كلمة (دونيا) Doña اسم الفتاة أو المرأة. أمّا كلمة Señor و Señora و Señorita فتسبق لقب الرجل والمرأة والفتاة لا أسماءهم. أسماء الخدم كما هو واضح ومفهوم تظهر غير مسبوقة بأيّ من هذين اللقبين الاعتباريين.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تدور المشاهدُ والأحداث في نُزُلٍ بمدينة الكالا دي إنارِس[1]

تمثل خشبة المسرح صالة وزّعت فيها أبواب غرف النزلاء الأربعة المرقّمة. في الخلفيّة باب كبير وسلّم يؤدّي إلى الطابق الأرضي. نافذة محجّرة على أحد الجوانب. منضدة في الوسط ودكّة وكراسٍ...

تبدأ أحداث المسرحيّة في الساعة السابعة مساء
وتنتهي في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي.

١- الكالا دي إنارس Alcalá de Henares: مدينة من أعمال مدريد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفَصْلُ الأوّل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الأوّل

(يخرج دون دييغو من حجرته. ينهض سيمون، الجالس على كرسي، من مكانه.)

دون دييغو:

ألم يصلْنَ؟

سيمون:

كلاّ سيّدي

دون دييغو:

لقد تأخّرن.

سيمون:

يبدو أنّ خالتها شديدة التعلّق بها، فهي لم ترها منذ أن أخذوها إلى (غوادا لاخارا)[٢]...

٢- غوادا لاخارا Guadalajara أو (وادي الحجارة): من مدن إقليم وسط إسبانيا.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

أنا لا أقول ألاّ تراها؛ ولكن يكفي لقاء نصف ساعة ودمعتان لينتهي كلّ شيء.

سيمون:

وغريب أيضا قرارك الاعتكاف في النزل يومين كاملين. فالقراءة متعبة والنوم متعب... ومتعبة كذلك قذارة الحجرة والكراسي المحطمة ورسوم الابن الضال[٣] وقرع النواقيس والأجراس وصياح الحوذيين والقرويين، وفي ذلك كلّه ما لا يسمح بلحظة هدوء واحدة.

دون ديغو:

كان من المناسب أن أفعل ذلك. فالكلّ هنا يعرفني، [العمدة والسيد رئيس الدير والمفتش القضائي وقس مالقا]، وأنا لا أريد أن يراني أحد.

سيمون:

لا أفهم سبب كلّ هذا التكتّم. وهل في الأمر أكثر من أنّك رافقتَ دونيا إيرينه إلى (غوادا لاخارا) لإخراج الفتاة من الدير والعودة معهما إلى مدريد؟

٣- الابن الضال: مجموعة رسوم تمثّل قصّة تظهر في الإصحاح الخامس عشر من إنجيل لوقا وتتألّف من ثلاثة مشاهد تصوّر (١) هجر الابن بيته ثم (٢) عودته نادما بعد أن بدد الثروة التي حملها معه ثم (٣) توبة الأب عليه.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

نعم، يا رجل، فيه أكثر ممّا رأيتَ.

سيمون:

ماذا؟

دون ديغو:

شيء... شيء مّا ستعرفه، لن تنتظر طويلا كي تعرفه... اسمع سيمون، بالله عليك، أناشدك ألاّ تتكلّم بشيء،... إنّك إنسان طيب، وقد خدمتني بإخلاص سنوات طويلة... وأنت ترى أنّنا أخرجنا الفتاة من الدير وسنذهب بها إلى مدريد.

سيمون:

نعم يا سيّدي.

دون ديغو:

حسنا... لكنّي أكرّر عليك ألاّ تُصرّح بذلك لأحد .

سيمون:

وهو كذلك سيّدي... لم يكن القيلُ والقال من طبعي قطّ.

دون ديغو:

أعرف ذلك، ولذا فأنا أثق به. أنا في الواقع لم أكن رأيتُ دونيا باكيتا هذه، ولكنّي عرفتُ عنها الكثير من أمّها... وقرأتُ الكثير من رسائلها

Twitter: @ketab_n

ورأيتُ بعض رسائل خالتها الراهبة التي سكنتْ معها في (غوادا لاخارا)، والخلاصة أنّني حصلتُ على كلّ ما أردّتُ معرفته عن ميولها وطباعها. بل ممّكنتُ من رؤيتها والتطلّع إليها في هذه الأيّام القليلة، والواقع أن كلّ إطراء في حقّها قليل.

سيمون:

صحيح... إنها جميلة جدا و...

دون ديبغو:

وظريفة جدّا ومتواضعة جدّا... ولن أحدّثك عن بساطتها وبراءتها! إنّها فعلا ممّن يندر وجوده... وذكاؤها؟... فعلا، ذكاء حاد. وهكذا، ولكي أنتهي من إبلاغك، فما فكّرتُ فيه هو...

سيمون:

ليس عليكَ أن تقول لي أيّ شيء.

دون ديبغو:

حقّا؟ لماذا؟

سيمون:

لأنّني خمّنتُه. الفكرة تبدو لي رائعة.

دون ديبغو:

ماذا تقول؟

Twitter: @ketab_n

سيمون:

رائعة!

دون ديبغو:

فقد عرفتَ في الحال إذن؟...

سيمون:

الأمر واضح...عجباً! أقولُ لك سيّدي إنّ فكرة الزواج تبدو لي جيدة جداً جداً.

دون ديبغو:

فعلا... لقد فكّرتُ مليّا وأرى أنّها فكرة صائبة.

سيمون:

بالتأكيد

دون ديبغو:

ولكنّي أودُ ألاّ يعلم أحد بالأمر حتّى وقوعه.

سيمون:

حسناً تفعل.

دون ديبغو:

فليس الكلّ ينظرُ إلى الأشياء بالطريقة نفسها، ولن نعدم من سيتقوّل ويزعم أنّه جنون، و...

Twitter: @ketab_n

سيمون:

جنون؟ ما أروعه من جنون!... ومع فتاة كهذه؟

دون ديغو:

نعم. صحيح أنّها فقيرة... هذا صحيح، [فقد أسرفت أمّها الصالحة، والكلام بيني وبينك، في الإنفاق بعد وفاة زوجها، ولولا هؤلاء الراهبات المباركات، ولولا شقيق زوجها، راهب كاسترو خيريث[٤]، لما وجدتْ قدرا تضعه على النار... إنّها مغرورة ومتصنّعة ولا تفتأ تتحدّث عن معارفها وعن موتاها، ولا تكفّ عن سرد قصص من أنّ... المهمّ ليس هذا هو موضوعنا...] فأنا لم أبحث عن المال، فهو موفور لديّ؛ بل أبحث عن التواضع والستر والفضيلة.

سيمون:

هذا هو المهم... ثمّ، لمن سيصيرُ كلّ ما تملك؟

دون ديغو:

أحسنت... هل تعرف ماذا تعني المرأة المدبّرة العاملة التي تهتمّ بأمر بيتها وتقتصد وتفهم في كلّ شيء؟... أنتَ تراني الآن في صراع مع الخادمات: هذه سيئة وتلك أسوأ، يؤثرن الراحة، فضوليات وثرثارات ومتوترات وعجائز شمط كالشياطين... كلاّ؛ أنّني أتوق إلى حياة جديدة. سأجد مَن تخدمني وترعاني بحب وإخلاص، وسنعيش مثل قدّيسين... وليقل الناسُ ما يقولون و...

٤- كاسترو خيريث Castrojeriz: بلدة في برغوس Burgos في وسط شمال اسبانيا.

Twitter: @ketab_n

سيمون:

وماذا عساهم أن يقولوا ما دام الاثنان راضيين؟

دون ديغو:

أنا أعرف ما سيقولون... سيقولون إنّ الزواج غير متكافئ، وإن لا تناسب في السنّ، وإنّ ...

سيمون:

على الإطلاق... فالفرق لا يبدو كبيرا... سبعة أعوام أو ثمانية على الأكثر...

دون ديغو:

كيف تقول سبعة أعوام أو ثمانية وقد بلغتْ هي السادسة عشرة منذ أشهر قليلة؟

سيمون:

حسناً، وماذا؟

دون ديغو:

إنّني بفضل الله قويّ معافى ولكن... ليس لأحد أن ينقصَ من سنوات عمري التسع والخمسين شيئا.

سيمون:

لكنّي لا أتكلّم عنكَ أنتَ سيّدي!

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

عمّن تتكلّم إذاً؟

سيمون:

كنتُ أقصد... لا شيء... يبدو أنّك لم توضّح كلامك، أو أنّني لم أفهم قصدك... المهم، ممّن ستتزوّج دونيا باكيتا هذه؟

دون ديغو:

منّي بالطبع.

سيمون:

منكَ؟

دون ديغو:

نعم، منّي.

سيمون:

ما أروع ما تقول!

دون ديغو:

ماذا تقول؟... تكلّم.

سيمون:

وأنا الذي ظننتُ أنّني خمّنت!

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

ماذا ظننتَ؟ ولمن اعتقدّتَ أنّني اخترتُها؟

سيمون:

لابن أخيك دون كارلوس، الشاب الذكي المتعلّم والعسكري المتميز والمحبوب لكلّ مواصفاته... ظننتُ أنّك فكّرتَ في أن تحتفظ بتلك الفتاة له.

دون ديغو:

يا رجل!

سيمون:

حسنا!

دون ديغو:

أيّة فكرة هذه! أزوّجها لآخر!... لا يا رجل؛ ليلتفت كارلوس إلى دراسة الرياضيّات.

سيمون:

إنه يدرُسها؛ أو بالأحرى يدرّسها.

دون ديغو:

وليكن رجلاً شجاعاً و...

Twitter: @ketab_n

سيمون:

الشجاعة؟ تطلبُ الشجاعة من ضابط استولى في الحرب الأخيرة[٥]، مع قليلين ممّن تبعوه، على مدفعين وأعطبهما وعاد إلى معسكره مثخنا بالجراح يقتاد عددا من الأسرى؟... وكم كنتَ فخورا وقتها بابن أخيك، بل لقد أجهشتَ بالبكاء فرحا أكثر من أربع مرّات حينما منحه الملك رتبة المقدّم وقلّده شارة صليب القنطرة.

دون دييغو:

نعم. هذا صحيح؛ لكنْ ليس هذا موضوعنا، فمن سيتزوّج هو أنا.

سيمون:

هذا إذا كنتَ واثقا من أنّها تحبّك، ومن أنّ فارق السنّ لا يخيفها، ومن أنّها حرّة في اختيارها...

دون دييغو:

أوليست هي كذلك إذاً...؟ [لقد كتبتْ إليها دونيا إيرينه تخبرها بالموضوع، وذهبنا نحن إلى هناك، ورأتني واطلعتْ على كلّ ما أرادتْ معرفته وردّتْ بالإيجاب وأبدتْ رضاها وقبولها بالنصيب الذي جاءها، وقد رأيتَ بأيّ لطفٍ تعاملني، وبأيّ وجه ودود وبريء تلقاني... انظر سيمون، للزيجات غير المتكافئة عموماً عاقبة وخيمة،

٥- الحرب الأخيرة: لا نعرف إلى أيّة حرب من الحروب الأربع التي خاضتها اسبانيا خلال القرن الثامن عشر يشير المؤلّف. يميل الناشر إلى أنّ المؤلف لا يشير إلى حرب بعينها.

Twitter: @ketab_n

فأحد الطرفين لا يملك حرية التصرّف، هناك عنف ومغريات وخداع وتهديدات وتعسّف... أمّا في هذه الحال فلا شيء من هذا القبيل]. وماذا سيجنون من خداعي؟. وأنتَ ترى أنّ راهبة (غوادا لاخارا) امرأة عاقلة، وهذه الأخرى الموجودة في (الكالا)، وإن كنتُ لا أعرفها، فإنّها سيّدة فاضلة، ولا بدّ أنّ دونيا إيرينه تريد الخير لابنتها. لقد أعطيتني جميعهن من التأكيدات ما أردّتُ... والخادمة، التي قامتْ على خدمتها في مدريد ثم في الدير أكثر من أربع سنوات، تشيد بها، وقد أخبرتني أنّها لم تلحظ لدى البنت أدنى ميل إلى أيّ من الرجال القلائل الذين تمكّنتْ من رؤيتهم في ذلك المعتزل. وما كان لها من شغل وتسلية غير التطريز والخياطة وقراءة كتب العبادة وحضور القدّاس والجري في المزرعة خلف الفراشات وصبّ الماء في ثقوب بيوت النمل. ذلك كان شغلها الشاغل وتلك كانت تسليتها... فماذا تقول؟

سيمون:

أنا لا أقول شيئا سيدي

دون ديغو:

ولا تظنّنّ أنني، ورغم كلّ التأكيدات، لا أنتهز أيّة مناسبة لكسب ودّها وثقتها كي تتكلّم معي بحريّة مطلقة... مع ذلك فما زال في الوقت متّسع... لكنّ دونيا إيرينه تلك تقاطعها دائما وتتكلّم نيابة عنها في كلّ شيء... إنّها امرأة طيبة جدّاً، طيبة...

سيمون:

المهم، سيّدي، أتمنّى أن تسير الأمور على ما تهوى.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

نعم. أدعُ الله ألاّ تسوء الأمور، وإن لم يكن العريس على مرامك... أما ما تنصحني به حول ابن أخي فليس في محلّه! أتعلم كم أنا مستاء منه؟

سيمون:

وماذا فعل؟

دون ديغو:

مغامرة أخرى من مغامراته... لم أعلم بها إلاّ منذُ أيّام قليلة. تذكرُ أنّه في العام الماضي أقام شهرين في مدريد... وقد كلّفتني إقامته تلك مالا كثيرا... ولكن لا بأس، فهو ابن أخي والمال ليس خسارة فيه. وتذكرُ أنّني بعد أيّام قليلة من خروجه من مدريد تلقّيتُ خبر وصوله.

سيمون:

نعم سيّدي.

دون ديغو:

وقد واصل الكتابة إليّ ولو بشيء من الكسل ومؤرّخا رسائله دائما في سرقسطة[٦].

سيمون:

هذه هي الحقيقة.

٦- سرقسطة Zaragoza: عاصمة إقليم أراغون الاسباني المذكور.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

لقد تبيّن لي أنّ الصعلوك لم يكن هناك وقت كتابة تلك الرسائل.

سيمون:

ماذا تقول؟

دون ديغو:

نعم. لقد تركَ البيت في الثالث من ممّوز لكنّه لم يصل إلى معسكره حتى نهاية أيلول... ألا يبدو لك أنّه عجّل كثيرا للوصول متأخراً؟

سيمون:

لعلّه مرض في الطريق و لم يشأ أن يثير قلقك...

دون ديغو:

لا شيء من هذا. بل هي غراميّات السيّد الضابط ونزواته التي تسلبه قلبه ولبّه... فقد يجد في تلك المدن... من يدري؟ قد يقع في غرام عينين سوداوين فإذا هو رجل هالك... عسى الله ألا يسمح لإحدى الماكرات، ممّن يقايضن الشرف بالزواج بخديعته والضحك عليه!

سيمون:

أوه! لا تخشَ منْ ذلك... وإن هو وقع في شراك إحداهنّ فلا شكّ أنّها تملك أوراقا قويّة كي تخدعه بها.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

يبدو أنّهن وصلنَ... نعم. أبحثْ عن الحوذي واطلبْ منه أن يأتي لكي نتفق على ساعة الخروج غدا.

سيمون:

حسنا!

دون ديغو:

وكما قلتُ لك فأنا لا أريد أن يعرف أحد بهذا... مفهوم؟

سيمون:

لا تقلقْ. لن أتكلّم لأحد بشيء.

(ينصرف سيمون من الباب الخلفي. وتدخل من الباب نفسه النسوة الثلاث يرتدين شالات وفساتين سودا. تترك ريتا منديلا معقودا على المنضدة وتأخذ الشالات وتطويها)

Twitter: @ketab_n

المشهد الثاني

دونيا إيرينه، دونيا فرانثيسكا ، ريتا ، دون دييغو

دونيا فرانثيسكا:

ها قد وصلنا

دونيا إيرينه:

آي! ما أطول الدرج!

دون دييغو:

مرحبا بكنّ أيتها السيّدات.

دونيا إيرينه:

يبدو أنّك لم تخرج؟ (تجلس دونيا إيرينه ودون دييغو)

دون دييغو:

كلاّ سيّدتي. لكنّي سأخرج لاحقا في جولة صغيرة بهذه الناحية.
قرأتُ قليلاً، وحاولتُ أن أنام، لكنّ النومَ في هذا النُزُل غير ممكن.

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

صدقتَ... وما أكثرَ البعوض! اللعنة عليه. كم أزعجني الليلة البارحة!... ولكنْ أنظر، أنظر (تحل عقدة المنديل وتظهر بعض الحاجات التي يشير إليها الحوار) كم من الأشياء جلبتُ: مسبحات من الصدف وصلبانا من السرو وقواعد القديس بنيتو[٧] وقارورة زجاجيّة... أنظر كم هي جميلة، وقلبين من مسحوق الطلق... لا أدري كم من الأشياء لديّ!...نعم! وناقوسا من الطين المبارك حرزا من الرعود...!

دونيا إيرينه:

أشياء بسيطة أهدتها إيّاها الأمّهات الراهبات. كم كنّ مفتونات بها!

دونيا فرانثيسكا:

كم أحببنني! وكم بكتْ خالتي المسكينة!...لقد صارت عجوزا هرمة.

دونيا إيرينه:

لقد تأسفتْ كثيرا لأنها لم تتعرّف على حضرتك.

دونيا فرانثيسكا:

نعم. هذا صحيح. وكانت تقول: لِمَ لَمْ يأت ذلك السيّد؟

٧- قواعد القدّيس بنيتو: دليل روحي كتبه للرهبان القديس (بنيتو) (ق ١٦ م).

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

وقد رافقنا الأب القسّيس ومدير إقامة الطلبة الخُضر[٨] حتّى البوّابة.

دونيا فرانثيسكا:

خذي (تعاود ربط المنديل وتعطيه إلى ريتا التي تحمله ومعه الشالات إلى حجرة دونيا إيرينه) ضعيه هناك في السلّة. انظري، احمليه هكذا من الأطراف... يا إلهي! لقد انكسرت كعكة القديسة خيرترو وديس![٩]

ريتا:

لا يهم؛ أنا سآكلها.

٨- إقامة القديسة كاتالينا أو الطلبة الخضر في (الكالا دي إيناريس). أمّا تسميتهم بالخضر فتعود إلى لون الرداء الذي كانوا يرتدونه.

٩- كعكة معمولة من السكّر والنشا

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الثالث

دونيا إيرينه ودونيا فرانثيسكا ودون دييغو

دونيا فرانثيسكا:

أمّي! هل ندخل أم نبقى هنا؟

دونيا إيرينه:

حالاً صغيرتي، فأنا أريد أن أستريح قليلا.

دون دييغو:

اليوم نزلَ الحَرّ بكلّ شدّته.

دونيا إيرينه:

ما أطيب الهواء في حجرة الزيارات تلك! يا لها من متعة... [(تجلس دونيا فرانثيسكا إلى جانب أمّها).

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

ومع ذلك كانت تلك الراهبة البدينة، التي تدعى الأم (أنغوستياس)، تتصبّب عرقا... آي ما أكثر ما كانت تتصبّب عرقا!]

دونيا إيرينه:

أختي هي التي ما تزال معتلّة. لقد عانت هذا الشتاء كثيراً... ولكنّ السيّدة الطيّبة ما كانت تعرف ماذا تفعل بابنة أختها. وهي سعيدة جدّاً باختيارنا.

دون ديغو:

يسعدني أنّك راضية عن أولئك الأشخاص الذين تدينين لهم بأفضال مميّزة.

دونيا إيرينه:

نعم. كانت (ترينيداد) مسرورة جدّاً. وقد رأيتَ بعينيك كم أحزن (ثيركونثيسيون) الوداع. لكنّها تفهم أن لا بدّ من تجاوز كلّ شيء ما دام الأمر يتعلّق بسعادة البنت... ولا شكّ أنّك تتذكّر كم كانتْ مشاعرها فيّاضة، و...

دون ديغو:

هذا صحيح. لكن يبقى أن يشعر الطرف الآخر بالقدر ذاته من الرضى الذي يعبّر عنه كلّ المحبّين.

دونيا إيرينه:

إنّها بنت مطيعة ولن تتمرّد على ما تقرّره أمّها.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

كلّ هذا صحيح؛ لكن...

دونيا إيرينه:

وهي كريمة الأصل أيضا، وعليها أن تفكّر جيدا وأن تتصرّف وفقا للمقام الذي يناسبها وتستحقه.

دون ديغو:

نعم، ولكن ألا يمكنها، من دون الإساءة إلى مقامها وإلى أصلها...؟

دونيا فرانثيسكا:

هل أنصرف يا أمّي؟ (تنهض ثمّ تعاود الجلوس)

دونيا إيرينه:

لا يمكنها، لا يا سيّد، فالبنت المهذبة، كريمة النسب، لا يمكنها أن تتصرّف إلاّ وفقا للأصول الواجبة والمناسبة في كلّ حين. الفتاة، وأنتَ تراها هناك، هي صورة حيّة من جدّتها (دونيا خيرونيما دي بيرالتا)، غفر الله لها... عندي في البيت صورة لها، ولا بدّ أنّك رأيتها. وقد رسموها، حسب ما روت لي، ليرسلوها إلى خالها الأب (سيرابيون دي سان خوان كريسوستومو)، أسقف ميشواكان[١٠] المنتخب.

دون ديغو:

نعم...نعم

١٠– ميشواكان Michoacán: ولاية من ولايات وسط غرب المكسيك

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

لقد مات رجل الدين الطيب غرقا في البحر، وكان في موته خسارة كبيرة للعائلة كلّها... وما زلنا إلى اليوم نتأسف لموته، ولا سيّما ابن عمّي (دون كوكوفاته) حاكم ثامورا[١١] الدائم، الذي ينخرط في البكاء ما إن يورد أحدهم ذكرا لغبطته.

دونيا فرانثيسكا:

سبحان الله في الذباب!...

دونيا إيرينه:

لقد مات تحفّ به هالة القداسة.

دون ديغو:

هذا شيء جيد.

دونيا إيرينه:

بالطبع. لكنّ حالَ الأسرة ساء وتردّى، وما عاد لديها من موارد، وحضرتك تفهمني... وهم الآن يكتبون سيرة حياته تحسبا لما قد يقع؛ ومن يدري فربّما يطبعونها، بإذن الله، مستقبلا.

دون ديغو:

نعم، فكل شيء الآن يطبع.

١١- ثامورا Zamora: محافظة من إقليم شمال غرب اسبانيا وتقع على الحدود البرتغالية.

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

الصحيح أنّ المؤلّف، وهو ابن أخ صهري، راهب (كاسترو خيريث)، لا يكفّ عن الكتابة، وقد دوّن حتى هذه الساعة تسعة مجلّدات من الورق، تتحدّث عن السنوات التسع الأولى من حياة القدّيس.

دون ديغو:

مجلّد لكل عام إذاً؟

دونيا إيرينه:

بالتأكيد. فقد خطّط هكذا.

دون ديغو:

وعن أيّ سنّ مات الموقّر؟

دونيا إيرينه:

عن اثنين وثمانين عاماً وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً.

دونيا فرانثيسكا:

أنا ذاهبة يا أمّاه

دونيا إيرينه:

اذهبي. سبحان الله في طبعك!

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

أتريد (تنهض، وبعد أن تحيي دون ديبغو، تقبّل أمّها وتذهب إلى الحجرة) أن أقدم لك تحيّة على الطريقة الفرنسية؟

دون ديبغو:

نعم يا ابنتي، أرينا ذلك.

دونيا فرانثيسكا:

انظر، هكذا.

دون ديبغو:

يا لك من طفلة ظريفة. عاشت... عاشت باكيتا!

دونيا فرانثيسكا:

لك تحيّة ولأمي قبلة.

Twitter: @ketab_n

المشهد الرابع

دونيا إيرينه ودون دييغو

دونيا إيرينه:

ما أطيب قلبها! وما أجملها!

دون دييغو:

عندها ظُرف طبيعيّ أخّاذ.

دونيا إيرينه:

وماذا تظنّ حضرتك؟ لقد ربّيتها بعيدا عن مكر العالم ومغرياته، وهي مسرورة لوجودها ثانية إلى جانب أمّها، ومسرورة أكثر من دنّو وقت انتقالها إلى وضعها الجديد، فليس بعجيب أن تكون ظريفة في ما تقوله وما تفعله، ولا سيّما في عينيك، وأنت المصمّم على رعايتها وحمايتها.

دون دييغو:

ما أتمنّاه هو أن تعبّر لي بحريّة عن رأيها في مشروع زواجنا و...

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

ستسمع منها نفس ما قلتُه لك.

دون ديبغو:

نعم. أنا لا أشك في ذلك، لكنّ تيقّني من أنني أحظى بميل منها، وسماعي ذلك من فمها الصغير الظريف سيمنحني راحة لا تقدّر بثمن.

دونيا إيرينه:

لا يخامرنّك في هذه المسألة أدنى شك، لكن تنبّه إلى أنّه من غير المناسب أن تصرّح فتاة صغيرة بما تشعر به. سيبدو سيّئا، دون ديبغو، أن تجرؤ فتاة عفيفة، تربّت كما أمر الله ، على أن تقول لرجل ما: أنا أحبّك.

دون ديبغو:

هذا لو كان رجلا صادفتْه في الشارع وطوّقته بهذا الجميل من دون مقدمات، من المؤكد أنّها سترتكب في هذه الحالة خطأ كبيرا؛ لكنّ هذا الرجل سيصبح زوجها بعد أيّام قليلة، أليس في مقدورها إذاً أن تقول له شيئا؟ ثمّ إنّ هناك طرقا كثيرة للتعبير عن المشاعر...

دونيا إيرينه:

إنّها تصارحني بكلّ شيء. ونحن نتكلّم عنك في كلّ لحظة وفي كلّ شيء، وهي تصرّح بالودّ الذي تكنّه لك... لو رأيتَ بأيّ منطق كانت تتكلّم مساء أمس بعد أن انصرفتَ إلى حجرتك! لا أدري ماذا ستهب مقابل أن تسمع ما قالتْ.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

ماذا؟ هل كانت تتكلّم عنّي ؟

دونيا إيرينه:

وما أحسن ما تفكّر فيه حول فضل أن تتزوّج فتاة بسنّها من رجل على قدر من السنين، مجرّب وناضج وحسن السلوك...

دون ديغو:

صحيح؟ أهذا ما قالتْ؟

دونيا إيرينه:

كلاّ؛ هذا ما قلتُه أنا لها وكانت هي تصغي إليّ وكأنّها امرأة في الأربعين... لقد حدّثتُها عن أمور مفيدة! وهي ذات بصيرة وذكاء، وإن كان من غير المناسب الحديث عن ذلك... ولكن أليس من المحزن رؤية زيجات اليوم كيف تتم؟ يزوّجون بنت الخمسة عشر عاما من صبي لا يتعدّى الثامنة عشرة، ويزوّجون من لها سبعة عشر بآخر ذي اثنين وعشرين: طفلان غريران بلا عقل ولا تجربة. وهذا هو ما أقوله، سيّدي، فمن ذا الذي يدبّر شؤون البيت؟ ومن ذا الذي يأمر الخدم؟ وعلى من تقع مسؤولية تعليم الأولاد وتقويم الاعوجاج؟ والمصيبة أنّ هؤلاء الصبية الطائشين سرعان ما يملئون البيت بالأولاد، وهو أمر يبعث على الشفقة.

دون ديغو:

صحيح، من المؤلم رؤية الكثيرين ممن يفتقرون إلى الذكاء والخبرة والفضائل اللازمة للتوجيه والتربية محاطين بالأولاد.

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

ما أستطيع قوله لك هو أنّني تزوّجت لأول مرّة من (دون ابيفانيو)، رحمه الله، ولمّا أبلغ التاسعة عشرة. كان، ولا خير عليك، رجلاً لا يفوقه أحد وقاراً ورجولة... وظريف الكلام فصيحه. كان حين زواجنا قد ناهز السابعة والخمسين.

دون ديغو:

سن جيدة... لم يكن صغيراً؛ لكن...

دونيا إيرينه:

هذا ما أريد قوله... وما كان يناسبني أنا كذلك صبيّ مغرور قليل الحكمة والتدبير. كلاّ... ولم يكن معتلاً ولا سقيما في صحتّه. كان، بفضل الله، معافى كالتفّاحة، ولم يعرف في حياته مرضا غير الصرع، الذي كان ينتابه من حين لآخر. لكنّ المرض اشتدّ عليه بعد زواجنا، حتّى وجدت نفسي بعد سبعة أشهر من الزواج أرملة وحبلى بطفل ولدَ، ثمّ ما لبث أن مات بالحصبة.

دون ديغو:

عجبا أن أعقب (دون ابيفانيو) الطيّب!

دونيا إيرينه:

بالطبع... ولِم لا ؟

Twitter: @ketab_n

دون ديبغو:

أقول ذلك لأن الناس يخرجون عليك... ولو أنّ الالتفات إلى ما يقولون... وهل كان ولدا أمّ بنتا؟

دونيا إيرينه:

كان ولداً رائعاً... كان كالفضة.

دون ديبغو:

صحيح، من العزاء أن يحظى المرء بمخلوق كهذا و...

دونيا إيرينه:

يا إلهي! كم يجلبون من الآلام ولكن، لا يهمّ ذلك. إنّها متعة كبيرة... كبيرة.

دون ديبغو:

بالتأكيد.

دونيا إيرينه:

نعم، يا سيّدي.

دون ديبغو:

واضح أنّه شيء ممتع و...

دونيا إيرينه:

وماذا تظنّ إذاً؟

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

ما أروع أن تراهم يلعبون ويضحكون وأن تداعبهم وتستمتع بلهوهم البريء.

دونيا إيرينه:

يا لأولاد روحي! لقد رزقتُ باثنين وعشرين منهم في زيجاتي الثلاث حتّى الآن، و لم يبق لي منهم إلاّ هذه البنت، ولكنّي أؤكّد لك أنّ...

Twitter: @ketab_n

المشهد الخامس

سيمون ودونيا ايرينه ودون دييغو

سيمون:

(وهو يخرج من الباب الخلفي)

سيّدي، الحوذي بالانتظار.

دون دييغو:

قل له إنني قادم... آه! ناولني أوّلا قبعتي وعصاي، أريد أن أقوم بجولة في البرّيّة. (يدخل سيمون إلى حجرة دون دييغو ويخرج بالقبعة والعصا ويعطيهما لسيده. وفي نهاية المشهد يخرج معه من الباب الخلفي)

إذاً سنخرج غداً باكراً.

دونيا إيرينه:

من دون عائق، وفي الساعة التي تناسبك.

دون دييغو:

في حدود السادسة؟

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

حسن جدا.

دون ديغو:

ستكون الشمس خلفنا... سأقول له أن يأتي قبل نصف ساعة من الموعد.

دونيا إيرينه:

فعلا، لأنّ أمامنا أن نرتّب الكثير من الحاجات.

Twitter: @ketab_n

المشهد السادس

دونيا ايرينه وريتا

دونيا إيرينه:

يا الهي! لقد تذكّرتُ... ريتا! أخشى أنّهم تركوه يموت. ريتا!

ريتا:

سيّدتي. (تخرج من تحت ذراعها وسائد وملاءات)

دونيا إيرينه:

ماذا فعلت بالطائر؟ هل أطعمتيه؟

ريتا:

نعم سيدتي. لقد أكل أكثر ممّا تأكل النعامة. وقد وضعتُه هناك عند نافذة الممر.

دونيا إيرينه:

هل رتّبت الأسرّة؟

Twitter: @ketab_n

ريتا:

انتهيتُ من ترتيب سريرك، وسأرتّب البقيّة قبل حلول الظلام وإلا فلن أتبيّن طريقي، فليس هناك ضوء غير ضوء القنديل، وليس للقنديل كلاّب لتعليقه.

دونيا إيرينه:

وتلك الفتاة، ماذا تفعل؟

ريتا:

إنّها تفتّتُ قطعة بسكوت لعشاء السيّد (بيريكيتو)[١٢].

دونيا إيرينه:

كم أكره كتابة الرسائل! (تنهض وتدخل إلى حجرتها). لكن لا بدّ من الكتابة، فلا شكّ أنّ المسكينة (ثيركونثيسيون) قلقة كثيرا.

ريتا:

يا للترهات! ها قد بدأت المراسلات ولمّا تمرّ، كما يقال، ساعتان على خروجنا من هناك. ما أقل ما تعجبني النساء المتصنّعات المتملقات! (تدخل إلى حجرة دونيا فرانثيسكا)

١٢- بيريكيتو: اسم الطائر

Twitter: @ketab_n

المشهد السابع

كالاموتشا:

(يخرج من الباب الخلفي وهو يحمل بعض الحقائب والأحذية والسياط. يضعها على المنضدة ويجلس)

هي إذاً الحجرة رقم ثلاثة؟ عجبا فأنا أعرف الرقم ثلاثة هذا. ومجاميع الحشرات الكثيرة فيها لا يضمّها ولا حتّى متحف التاريخ الطبيعي... يخيفني الدخول إليها... آي! آي!... وما أشدّ وخز العضلات! هذه هي الآلام حقّا... صبراً أيّها المسكين كالاموتشا، صبرا... وحمدا لله أن قالت الخيل: كفانا عدوا؛ فلولا ذلك لما استطعتُ الآن أن أبصر الرقم ثلاثة ولا آفات فرعون التي في داخلها... ولكن، إن أصبحت الخيلُ غدا حيّة ترزق، فليس ذلك بالقليل... إنّها منهكة... (ريتا تغنّي من داخل الحجرة. ينهض كالاموتشا وهو يتمطّى) يا سلام! ماذا نسمع؟ سيغيديّاس[١٣]؟... لا بأس في غنائها... ما أجمله!... أمامنا مغامرة... ياه! كم أنا متعب!

١٣- سيغيديّاس: نوع من الغناء الشعبي الإسباني.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الثامن

ريتا وكالاموتشا

ريتا:

من الأفضل أن أغلق الباب وإلاّ سُرقت ملابسنا، و...(تجاهد مع المفتاح). يا لهذا المفتاح!

كالاموتشا:

هل لي أن أساعدك يا حياتي؟

ريتا:

شكراً لك يا روحي.

كالاموتشا:

ريتا؟

ريتا:

كالاموتشا!

Twitter: @ketab_n

كالاموتشا:

أيّة مصادفة هذه؟

ريتا:

وسيّدك؟

كالاموتشا:

لقد وصلنا للتو.

ريتا:

حقاً؟

كالاموتشا:

لا، إنّني أمزح. فما أن تلقّى رسالة دونيا باكيتا، لا أدري إلى أين ذهب ولا مع من تحدّث ولا كيف استعدّ؛ لا أدري ماذا أقول لك...فقد خرجنا في ذلك المساء من سرقسطة... وجئنا كالبرق في ذلك الطريق... وصلنا هذا الصباح إلى (غوادا لاخارا)، ومع أولى التحرّيات اكتشفنا أنّ العصافير طارت. ركبنا خيولنا وانطلقنا لنتصبب عرقاً ونضرب السياط كرّة أخرى... وأخيرا توقّفنا هنا، وقد أنهكت الخيل وبلغ منّا التعب مبلغه، على أمل أن نخرج غدا... سيّدي الضابط ذهب إلى القسم الداخلي لزيارة صديق له، بينما أنا أعدّ له العشاء... هذه هي القصة.

ريتا:

فهو هنا إذاً؟

Twitter: @ketab_n

كالاموتشا:

مغرما أكثر من أيّ وقت مضى وغيورا ومتوعدا... وعازما على بثّ الرعب في قلب كلّ من ينازعه معبودته كورّيتا.

ريتا:

ماذا تقول؟

كالاموتشا:

ما سمعتِ.

ريتا:

ما أجمل قولك!... فهو يحبّها حقّاً.

كالاموتشا:

يحبّها؟ أيّتها الباردة!... إنّ (غازول) المسلم ليبدو أمامه ساذجاً، و(ميدورو) تافهاً و(غايفيروس) تلميذاً.[١٤]

ريتا:

آه لو تعلم آنستي بذلك!

كالاموتشا:

المهم، ما جاء بكِ إلى هنا؟ ومع مَن ؟ ومتى وصلتِ؟ ماذا...

١٤- (غازول) و(ميدورو) و(غايفيروس) أسماء لأبطال روايات ومسرحيات رومانسية قديمة.

Twitter: @ketab_n

ريتا:

سأحكي لك. لقد كتبتْ والدة دونيا باكيتا الرسالة تلو الأخرى تخبر فيها أنّها اتفقت على تزويجها في مدريد من رجل غني شريف محبوب، رجل، بالمختصر، كامل لا نقص فيه. ولمّا وجدت الآنسة نفسها ملاحقة بتلك العروض وبدأت تضيق بمواعظ تلك الراهبة المباركة، لم تجد بدّا من القول بأنّها مستعدة للقبول بما يأمرونها به... لكنّي لا أستطيع أن أصف لك كم بكتْ المسكينة وكم كانتْ متألّمة. فما كانتْ تشتهي أكلا ولا تستطيع مناما... وكان عليها في الوقت نفسه أن تداري كيلا تشكّ خالتها في حقيقة الأمر. ولمّا اجتازتْ حالة الخوف الأولي بدأت التفكير في الوسائل والحلول، و لم نجد خيرا من إخبار سيّدك لعلّه يستطيع، إن كان صادقا في حبّه ومخلصا في دعواه، أن يحول دون أن تؤول المسكينة باكيتا إلى شخص آخر لا تعرفه، ولتضيع، والى الأبد، تلك العواطف الفيّاضة وتلك الدموع الغزيرة وتلك التنهدات الحرّى، ولترتطم بجدار أصم. وبعد أيام قليلة من الكتابة إليه وصلت عربة تجرّها بغال مزيّنة بالأطواق ويقودها (غاسباريت)، الحوذي ذو الجوارب الزرق، تحملُ الأم والخطيب، اللذين جاءا في طلبها. جمعنا حاجياتنا على عجل، وربطنا الصناديق وودعنا أولئك النسوة الطيّبات، وبسوطين وصلنا إلى (الكالا) أمس الأول. أمّا سبب توقّفنا فلكي تزور الآنسة خالةً راهبة لها هنا، مجعّدة الوجه صمّاء كتلك التي تركناها هناك. أمّا راهبات الدير فقد قبّلنها الواحدة تلو الأخرى، وأظنّ أنّنا سنخرج غداً باكراً. ولهذه الصدفة...

كالاموتشا:

نعم. لا تقولي المزيد... فالخطيب في الفندق إذاً؟

Twitter: @ketab_n

ريتا:

تلك هي حجرته (تشير إلى حجرة دون دييغو وحجرة دونيا إيرينة وحجرة دونيا فرانثيسكا) وهذه هي حجرة الأم وتلك هي حجرتنا.

كالاموتشا:

ماذا تقصدين بحجرتنا؟ حجرتنا أنا وأنتِ!!

ريتا:

كلاّ بالطبع. سأنام الليلة هنا مع الآنسة، لأنّ هذه الحجرة المقابلة لم تتسع لنا ثلاثتنا في الليلة الماضية حتى ونحن واقفات على أقدامنا. و لم نستطع فيها النوم لحظة ولا حتّى التنفس.

كالاموتشا:

حسنا. وداعا.(يحمل الحاجات التي وضعها على المنضدة ويهمّ بالانصراف)

ريتا:

إلى أين؟

كالاموتشا:

فهمتُ... لكن هل جلب الخطيب معه خدما وأصدقاء وأقرباء ليحموه من الطعنة الأولى التي تنتظره!

ريتا:

ليس معه غير خادمه.

Twitter: @ketab_n

كالاموتشا:

شيء بسيط! اسمعي! قولي له، رحمة به، أن يكون مستعدّا، لأنّه في خطر. وداعا.

ريتا:

وهل ستعود سريعا؟

كالاموتشا:

أظنّ ذلك. فهذه الأمور تتطلّب عجلة، ومع أنّني أكاد لا أستطيع الحركة، فمن الضروري أن يقطع سيّدي زيارته ويأتي لإنجاز مهمّته وليتهيّأ لدفن هذا الرجل و... فهذه إذاً حجرتنا؟

ريتا:

نعم. حجرتنا أنا والآنسة.

كالاموتشا:

مكّارة!

ريتا:

مغفّل! وداعا.

كالاموتشا:

وداعا أيّتها المملّة.

(يدخل مع الحاجيات إلى حجرة دون كارلوس)

Twitter: @ketab_n

المشهد التاسع

دونيا فرانثيسكا وريتا

ريتا:

ما أسوأه!... يا إلهي! دون فيليكس هنا!... نعم، أنّه يحبّها... (يخرج كالاموتشا من حجرة دون كارلوس ويتّجه صوب الباب الخلفي). آه! مهما قيل... فهناك منهم المخلصون، وما على الواحدة منّا إلا أن تغرم بهم؛ لا مفرّ من ذلك... لكن، ماذا ستقول الآنسة حين تراه، وهي العاشقة الولهى؟ يا للمسكينة ! أليس من المحزن أن.:. ؟ إنّها هي. (تخرج دونيا فرانثيسكا)

دونيا فرانثيسكا:

آي ريتا!

ريتا:

ما بكِ؟ هل كنتِ تبكين؟

دونيا فرانثيسكا:

أما عليّ أن أبكي؟ لو أنّك رأيتِ أمّي... إنّها مصمّمة على أن

Twitter: @ketab_n

أهيم حبّا بذاك الرجل... لو أنّها تعلم ما تعلمين لما طلبتْ منّي أشياء مستحيلة... تقول إنّه طيّب وغنيّ، وإنّي سأكون سعيدة معه... لقد عنّفتني ودعتني بالصعلوكة والعاقّة... مسكينة أنا! تدعوني صعلوكة لأني لا أكذب ولا أجيد التصنّع.

ريتا:

هوّني عليك آنستي، لا تبتئسي.

دونيا فرانثيسكا:

نعم. فأنتِ لم تسمعي ما قالت... تقول إنّ دون دييغو يشكو من أنّني لا أكلّمه... وقد كلّمتُه، وحاولتُ وأحاولُ أن أبدو مسرورةً أمامه، وما أنا بمسرورة، وأن أضحك وأتكلّم في أمور تافهة... كلّ هذا كي أرضي أمّي، كيلا... لكن تشهد العذراء أنّ ذلك لا ينبع من قلبي.

(يخفت الضوء تدريجيا عن المسرح)

ريتا:

هيّا...هيّا، فليس هناك حتّى الآن ما يدعو لكلّ هذا الضيق... مَن يدري؟... هل تذكرين يوم العطلة الذي قضيناه العام الماضي في البيت الريفي لرئيس إدارة الجيش؟

دونيا فرانثيسكا:

ياه! كيف لي أن أنساه؟... لكن، ماذا تقصدين؟

Twitter: @ketab_n

ريتا:

أقصد أنّ ذلك الشاب، الذي رأيناه هناك يحملُ شارة الصليب الأخضر، بالغ الوسامة بالغ التهذيب...

دونيا فرانثيسكا:

لِم تلفين وتدورين؟... (دون فيليكس)، ما به؟

ريتا:

الذي رافقنا حتّى المدينة...

دونيا فرانثيسكا:

نعم... ثمّ رأيته بعدها، لسوء حظّي، مـرّات كثيرة...عملا بنصيحتك السيّئة.

ريتا:

لماذا سيدتي؟... وهل أثرنا فضيحة؟ لم يُثر الأمرُ شكّ أحد في الدير إلى الآن. فهو لم يدخل من باب قطّ، وحين كان يكلّمك ليلا، كانت بينكما مسافة واسعة لعنتِها غير مرّة... لكن، ليس هذا هو الموضوع. ما أقوله هو أنّ عاشقا من هذا النوع ليس في مقدوره أن ينسى حبيبته باكيتا بهذه السرعة... وانظري كيف أنّ كلّ ما قرأناه سرّاً في الروايات لا يعدلُ ما وجدناه فيه... أتذكرين صفقات اليد الثلاث تلك بين الحادية عشرة والثانية عشرة، تلك القيثارة التي تعزف برقّة وتعبير؟

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

آي ريتا! نعم أذكر ذلك كلّه وسأذكره ما دمتُ حيّة... لكنّه غائب... ربّما لانشغاله بمغامرات حبّ جديدة.

ريتا:

هذا في رأيي غير ممكن.

دونيا فرانثيسكا:

هو رجل، وكلّ الرجال...

ريتا:

ما هذه الترّهات! اصحي من وهمك آنستي. فما يقع للرجال وللنساء هو ما يقع مع بطيّخ آنيوبير[١٥]. هناك كلّ شكل وصنف، والصعوبة تكمن في حسن الاختيار. من لا يحسن الاختيار فعليه أن يندب حظّه، لا أن يعيبَ البضاعة،... هناك رجال غشّاشون ونصّابون، ولكنّ من غير المعقول أن يكون غشاشا مَن برهن في مرّات كثيرة على إخلاصه وحبّه. ثلاثة أشهر من الغزل في الشارع والحديث في الظلام من دون أن يصدر عنه ما يعيب أو أن نسمع منه ما يخدش.

دونيا فرانثيسكا:

كلامك صحيح. لذلك أحببتُه كثيرا وجعلتُ مكانه هنا... هنا... (تشير إلى قلبها). ماذا عساه قال حين رأى الرسالة؟... آه! أعرف جيّدا

١٥– آنيوبير Añover: من قرى طليطلة Toledo .

Twitter: @ketab_n

ما قال: يا إلهي! يا للأسف! يا للمسكينة باكيتا!... ربّما لم يقل أكثر من هذا... لم يقل أكثر.

ريتا:

لا سيّدتي، لم يقل ذلك.

دونيا فرانثيسكا:

وما أدراك أنتِ؟

ريتا:

أعرف جيّداً. لا شكّ أنّه تحرّك ما إن قرأ رسالتك، وسيأتي طائراً ليواسي صديقته... لكن... (تقترب من باب حجرة دونيا إيرينه)

دونيا فرانثيسكا:

إلى أين تذهبين؟

ريتا:

أريد أن أرى إن...

دونيا فرانثيسكا:

إنّها تكتب.

ريتا:

لن تلبث أن تترك الكتابة، فقد حلّ المساء... آنستي، ما قلتُه لك هو الحقيقة... دون فيليكس موجود في (الكالا).

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

ماذا تقولين؟ لا تكذبي عليّ.

ريتا:

تلك هي حجرته... وقد تكلّمتُ مع كالاموتشا للتو.

دونيا فرانثيسكا:

حقّا؟

ريتا:

نعم سيّدتي... وقد ذهب في طلبه لكي...

دونيا فرانثيسكا:

فهو إذاً يحبّني؟... آي ريتا. أرأيت أنّنا أحسنّا صنعا بإخباره... أرأيتِ كم هو رقيق ولطيف؟ لقد قطع كلّ هذه الفراسخ ليراني وحسب... لأنّني أمرته بذلك! كم أنا ممتنّة له! آه! إنني أعاهده أنّه لن يجدَ منّي إلا ما يرضيه... لن يجد منّي غيرَ الشكر والحبّ.

ريتا:

سأجلب القنديل، وسأحاول البقاء هناك في الأسفل حتّى يعودوا... سأرى ما يقول وماذا ينوي عمله، فوجودنا كلّنا هنا مجتمعين يمكن أن يشعل حربا بين الأم والبنت والخطيب والحبيب، وإذا لم نتمرّن جيّدا على هذه الرقصة المزدوجة فسنضيع فيها.

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

هذا كلام صحيح، لكن لا؛ فهو ذو عزم وذكاء، وسيقرّر ما هو أنسب... وكيف ستبلغينني؟... أنا أريد أن أراه حالما يصل.

ريتا:

أنا سأحضره إليك، وعندما أطلق تلك السعلة الجافّة... أنتِ ستفهمين قصدي.

دونيا فرانثيسكا:

حسنا!

ريتا:

فما عليك حينها إلاّ الخروج بأيّة ذريعة. أنا سأبقى مع السيدة الكبيرة، سأكلّمها عن كلّ أزواجها وعن عيالهم وعن الأسقف الذي مات غرقا... وإن كان دون دييغو هناك...

دونيا فرانثيسكا:

حسنا، هيّا، وحالما يصل...

ريتا:

في الحال.

دونيا فرانثيسكا:

لا تنسي السعلة...

Twitter: @ketab_n

ريتا:

اطمئنّي.

دونيا فرانثيسكا:

لو تعلمين كم ارتفعت معنوياتي!

ريتا:

أصدّقك من دون أن تقسمي على ذلك.

دونيا فرانثيسكا:

أتذكرين حين كان يقول لي إنّني لن أفارق خياله، وأن لا أخطار توقفه ولا مصاعب تعيقه للوصول إليّ؟

ريتا:

نعم، أذكر جيّدا.

دونيا فرانثيسكا:

آه!... أترين كم كان صادقا في ما قال. (تذهب دونيا فرانثيسكا إلى حجرة دونيا إيرينه، وتتجه ريتا إلى الباب الخلفي.)

Twitter: @ketab_n

الفَصْلُ الثّاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الأوّل

دونيا فرانثيسكا:

لم يظهر أحدٌ بعد... (المسرح مظلم. تقترب دونيا فرانثيسكا من الباب الخلفيّ ثمّ تعود). ما أقلّ صبري!... وتقول أمّي إنّي غريرة لا أفكّر إلاّ باللعب والضحك وبأنّي لا أعرف ما الحبّ... صحيح أنّي لم أكمل السابعة عشرة بعد، ولكنّي أدرك معنى الحب وما يكلّف من لوعة ودموع.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الثاني

دونيا إيرينه ودونيا فرانثيسكا

دونيا إيرينه:

لقد تركتماني هناك وحيدة وفي الظلام.

دونيا فرانثيسكا:

لأنّك، أمّاه، كنت تكتبين رسالة، و لم أشأ أن أزعجك، فخرجتُ لأنّ الجو هنا ألطف.

دونيا إيرينه:

وماذا تفعلُ تلك البنت؟ لماذا لا تأتي لنا بالقنديل؟ تتأخر سنة في عمل أي شيء...بينما أنا في خُلق البارود. (تجلس). هذا هو أمر الله... ألم يأتِ دون دييغو؟

دونيا فرانثيسكا:

أظنّ أنّه لم يأتِ بعد.

[يخيّم الظلام على المسرح ببطء ثم يضاء مرة أخرى في بداية المشهد الثالث]

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

تذكّري ما قلتُه لك. واعلمي أنني لا أحب تكرارُ القول. هذا الرجل حسّاس جدًا ومعه كلّ الحقّ في ذلك.

دونيا فرانثيسكا:

عرفتُ ذلك. وكفاك تعنيفا لي.

دونيا إيرينه:

ليس هذا تعنيفا يا ابنتي، هذا نصح. فأنت لا تقدّرين الخير الذي دخل علينا من كلّ باب... ولا تعرفين كم أنا مثقلة بالديون، ومن يدري ماذا كان سيحلّ بأمّك المسكينة... تعثّر دائم ونهوض... أطباء وصيدليات... وما يطلبه القاسي (دون برونو)، توّجه الله بالمجد، من ريالات عشرين وثلاثين عن كلّ كيس من حبوب الحنظل المسهلة وحبوب الحلتيت[١٦]... وما أقلّ مَن يحظين بزواج كالذي ستحظين به أنتِ. وما الفضل في ذلك لصفاتك أو لتدبيري، بل الفضل كلّ الفضلِ لصلوات خالاتك المباركات... فماذا تقولين ؟

دونيا فرانثيسكا:

لا شيءَ أمّاه.

دونيا إيرينه:

أنت لا تقولين أيّ شيء حين أحدّثك عن هذا الأمر؟ يا إلهي!... هلّا رددتِ عليّ بكلمة!

١٦- الحلتيت: صمغ راتينجي يستخرج من جذور بعض النباتات وكان يستعمل لعلاج التشنج.

Twitter: @ketab_n

المشهد الثالث

ريتا ودونيا إيرينه ودونيا فرانثيسكا

(تخرج ريتا من الباب الخلفي حاملة الشمعة وتضعها على المنضدة)

دونيا إيرينه:

عجبا لك يا امرأة. لقد ظننتُ أنّكِ لن تأتي طول الليل!

ريتا:

لقد تأخرتُ سيدتي لأنّي ذهبت لشراء الشموع، لأنّ دخان القنديل يؤذيك...

دونيا إيرينه:

يؤذيني جدا بالتأكيد بسبب الشقيقة التي أعاني... لقد اضطررت في النهاية إلى نزع لصقات الكافور التي لم تنفعني في شيء. لكنّي مع البرشام أشعر بحال أفضل... اسمعي، اتركي شمعة هناك واحملي أخرى إلى حجرتي وأسدلي الستارة كيلا يغزونا البعوض.

ريتا:

حسناً. (تأخذ شمعة وتتصنّع الانصراف)

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

(تتكلّم مع ريتا على حدة) ألم يأتِ بعد؟

ريتا:

سيأتي

دونيا إيرينه:

اسمعي. تلك الرسالة التي على المنضدة، أعطيها إلى صبيّ الفندق ليحملها إلى البريد في الحال... (تذهب ريتا إلى حجرة دونيا إيرينه). وأنتِ يا صغيرتي، ماذا ستتعشين؟ من الضروري أن نبكّر في النوم لننطلق غدا عند الفجر.

دونيا فرانثيسكا:

لقد أطعمتني الراهبات وجبة العصر...

دونيا إيرينه:

لا يهم... ولو مرق الطبيخ لتدفئة المعدة... (تخرج ريتا حاملة رسالة وتروح جيئة وذهابا حتّى نهاية المشهد بحسب متطلبات الحوار). اسمعي. عليك أن تسخّني المرق الذي بقي من طعام الظهر، واصنعي لنا كوبين من الحساء ثمّ أحضريهما لنا متى جهزا.

ريتا:

أهذا كلّ شيء؟

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

هذا كلّ شيء... أه! وليكن الحساء ساخنا.

ريتا:

نعم، أعرف ذلك.

دونيا إيرينه:

ريتا.

ريتا:

أوامر أخرى (لنفسها). بماذا تأمرين سيّدتي؟

دونيا إيرينه:

أكّدي على الصبيّ أن يحمل الرسالة في الحال... لكن لا. من الأفضل... لا أريد أن يحملها هو، فهؤلاء المعربدون لا يمكن... قولي لسيمون أن يعمل لي معروفا ويلقي الرسالة في البريد. مفهوم؟

ريتا:

نعم سيّدتي.

دونيا إيرينه:

أه! اسمعي.

ريتا:

أوامر أخرى (لنفسها)

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

ولو أنّ الأمر ليس مستعجلا... لكن عليكِ في ما بعد أن تنقلي الطائر وتعلّقيه هنا لئلا يسقط فيصاب بأذى... (تذهب ريتا صوب الباب الخلفي). ما أسوأ ما فعل بي الليلة البارحة، لقد راح يرتّل طوال الليل «مجد الأب» وصلوات الكفن المقدّس؟... صحيح أنّ ذلك مفيد للوعظ والتذكير، لكن مع النوم فالموضوع مختلف...

Twitter: @ketab_n

المشهد الرابع

دونيا إيرينه ودونيا فرانثيسكا

دونيا إيرينه:

لا بدّ أن لقاءً ما هو سبب تأخّر دون دييغو . فهو سيّد يراعي الأصول، دقيق في مواعيده... ورع تقي! وما ألطفه! وما ألطف كلامه! وبأيّ كرم وسخاء يتصرّف! سمات القوّة بادية عليه... وما أروع بيته! إنه يبدو مثل شعلة من ذهب!... ما أكثر ذلك! الملابس البيض ومعدات المطبخ وبيت المؤنة المملوء بكل ما خلق الله! لكنّك لا تبدين معنيّة بما أقول.

دونيا فرانثيسكا:

بلى سيدتي، أنا أسمعك جيداً، لكنّي لم أرد مقاطعتك.

دونيا إيرينه:

هناك ستكونين يا ابنتي كالسمكة في الماء؛ ولو تشهّيتِ طيور السماء فستحصلين عليها، لأنّه يهواك ولأنّه رجل نبيل خيّر يخاف الله... لكن اسمعي، يا ابنتي، يتعبني حقا أن تتمادي في السكوت على ما أقول كلّما كلّمتك...وليس ما أقول بالأمر الذي يخصّك أنتِ وحدك، يا إلهي!

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

أمي! لا تغضبي

دونيا إيرينه:

ليس من المجدي إصرارك على أن... أو تظنّين أنني لا أعرف سبب ذلك؟... ألا ترين أنّني أعلم بالحماقات التي تملأ رأسك الطائش؟ غفرانك ربّي!

دونيا فرانثيسكا:

وماذا تعرفين؟

دونيا إيرينه:

أتريدين خداعي؟ آه يا ابنتي! لقد عشتُ طويلا، وأنا بما عندي من الخبرة ونفاذ البصيرة أكبر من أن تخدعيني!

دونيا فرانثيسكا:

(لنفسها) لقد ضعتُ!

دونيا إيرينه:

لم تحسبي حسابا لأمك، كأنّ ليس لك أمّ... أؤكّد لك أنّ إخراجك من الدير كان ضروريا في كلّ الأحوال، حتّى لو لم تحن هذه المناسبة. كنتُ سأخرجك من الدير ولو اضطررتُ إلى قطع ذلك الطريق مشيا وبمفردي... ما أقلّ تفكير الطفلة هذا! حياتك القصيرة بين الراهبات أدخل في رأسك أنّك راهبة مثلهن... وما أدراك أنتِ بذلك... خدمة الله، يا صغيرتي، ممكنة في جميع الأحوال والحالات، لكنّ إرضاء

Twitter: @ketab_n

الوالدة ومساعدتها ومرافقتها وتسليتها في أعمالها هو الواجب الأول الذي تؤدّيه البنت المطيعة... فاعلمي ذلك إن كنت لا تعلمين.

دونيا فرانثيسكا:

هذا صحيح أمي! ولكنّني لم أفكر قط في التخلي عنك.

دونيا إيرينه:

حقّا؟ هذا ما لا أعرفه...

دونيا فرانثيسكا:

لا سيّدتي. صدّقيني. فباكيتا لن تتخلّى عن أمّها ولن تكدّر خاطرها.

دونيا إيرينه:

أتمنّى أن يكون ما تقولينه صحيحاً.

دونيا فرانثيسكا:

بالطبع سيدتي؛ فأنا لا أعرف الكذب.

دونيا إيرينه:

ها قد سمعتِ يا ابنتي ما قلتُه لك. وها قد عرفتِ ما ستفقدين، وأدركتِ الضيق الذي ستسببينه لي إن لم تتصرفي في كلّ الأمور كما يجب... فتنبّهي إلى ذلك.

دونيا فرانثيسكا:

(لنفسها) يا لشقائي!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الخامس

دونيا إيرينه ودونيا فرانثيسكا ودون دييغو

(يخرج دون دييغو من الباب الخلفي ويترك قبعته وعصاه على المنضدة)

دونيا إيرينه:

ما الذي أخّرك؟

دون دييغو:

ما إن خرجتُ حتى صادفت قسّ مالقا والدكتور باديّا، و لم يشاءا أن يتركاني قبل أن أشبع من الشوكولاته والفطائر...(يجلس بالقرب من دونيا إيرينه). وماذا عن موضوعنا؟ كيف تسير الأمور؟

دونيا إيرينه:

على ما يرام

دون دييغو:

ودونيا باكيتا؟

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

إنها تتذكر راهباتها دائما، ولقد قلتُ لها بأن الوقت قد حان لتغيّر سلوكها وتفكر في طاعة أمّها والظفر برضاها.

دون دييغو:

يا للشيطان! فهي إذن تتذكّر...؟

دونيا إيرينه:

أتستغرب ذلك؟ إنهن غريرات...لا يعرفن ما يعجبهنّ ولا ما ينفرن منه... إنّها سنّ...

دون دييغو:

على رسلك... فالعواطف في هذه السنّ أقوى وأشدّ ممّا هي عليه في سنّنا، ولمّا كان العقل فيها ضعيفا غير مكتمل، فإنّ اندفاع القلب يكون أقوى (يمسك بيد دونيا فرانثيسكا ويجلسها بالقرب منه). أخبريني دونيا باكيتا بصراحة: لو قدّر لك العودة إلى الدير فهل ستعودين إليه راغبة مختارة؟

دونيا إيرينه:

لكنّها لم...

دون دييغو:

دعيها، سيدتي، سترّد هي.

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

سمعتِ جيدا ما قلتُه لك قبل قليل...وأعوذ بالله أن أسبب لك ما تأسفين علَيه.

دون ديغو:

لكنّك تقولين ذلك محزونة و...

دونيا إيرينه:

لكنّ هذا أمر طبيعي، سيّدي. ألا تلاحظ أنّ...

دون ديغو:

اسكتي كرما لله، دونيا إيرينه، ولا تشرحي لي ما هو طبيعي. ما هو طبيعي هو أن تكون البنت مسكونة بالخوف فلا تجرؤ على التفوّه بكلمة تتعارض مع ما تريد منها أمها أن تقول... ولو كان الواقع هو هذا فنحن لعمري مخدوعون!

دونيا فرانثيسكا:

لا يا سيّدي؛ فما تقوله هي أقوله أنا. فأنا سأطيعها في كل ما تأمرني به.

دون ديغو:

تأمرك؟ في هذه المسائل المهمة، يا ابنتي، الآباء العقلاء لا يأمرون، بل يلمّحون ويقترحون وينصحون. هذا هو الصحيح، كلّ هذا صحيح؛ أمّا الأمر...! وفي مقدور مَن منّا أن يتحمّل لاحقا العواقب الوخيمة

Twitter: @ketab_n

لما أمر به؟ وكم من زيجات تعيسة وارتباطات فظيعة مشوهة وقعت لمجرّد أنّ أبا أحمق أمر بما لا يجب؟ [وكم من شقيّة ماتت قبل أجلها حبيسة الدير لمجرّد أنّ أمّها أو عمّها أصرّا على أنّ يتقرّبا إلى الله بقربان لم يطلبه]. كلا. ليس هذا بالسلوك الصحيح... اسمعي فرانثيسكا، أنا لستُ بالرجل الذي يداري على عيوبه. أعرف أنّ مظهري وسنّي لا يسمحان أن أعشق وأتولّه بأي كان، لكنّي لا أرى مستحيلا أن أجد فتاة راشدة ومهذّبة تغمرني بحبّ هادئ وثابت يقرب من الصداقة، وهي ما يجعل الزواج سعيدا. ولذا فإنا لم أبحث عن فتاة تنتمي إلى عائلة من تلك التي تعيش حريّة محتشمة... وأقول محتشمة لأنّي لا أتّهم ما لا يتعارض مع الفضيلة. فمَن هي تلك التي لا تنجرف في حبّ مَن هو أكثر جاذبيّة منّي؟ وفي مدريد؟ تصوّري نفسك في مدريد! لقد بدا لي، وقد امتلأ رأسي بهذه الأفكار، أنّني قد أجدُ فيك كلّ ما كنتُ راغبا فيه.

دونيا إيرينه:

وهل يمكنك، دون دييغو، أن تظنّ بأنّ...

دون دييغو:

أريد أن أنتهي من الكلام، سيدتي، دعيني أكمل كلامي. سأتكفّل، عزيزتي باكيتا، بما قد تكون الطقوس التي شهدتِها في ملجأ التقوى والفضيلة الطاهر ذاك تركتْه في بنت ببراءتك واستقامتك؛ أمّا إذا كان خيالك المحتدم وظروفك غير المحسوبة جعلتك، مع ذلك، تختارين شخصا أجدر بك منّي، فاعلمي أنّني لا أريد أن أنال أي شيء غصبا. إنّني بسيط ولساني يواطئ قلبي دائما، وهذا هو ما أطلبه منك، باكيتا: الصدق. لا أريد أن يكون الحب الذي أكنّه لك سببا في شقائك...

Twitter: @ketab_n

وليس لوالدتك أن ترضى بالظلم وهي تعلم جيدا أنّ ليس في الإمكان إسعاد أي من الناس بالقوة. فإن لم تجدي في خصالي ما تميلين إليه، أو أحسستِ بأيّ تحفظ آخر في قلبك، فإنّ أدنى مراوغة، صدّقيني، ستجعلنا جميعنا نأسف على الكثير.

دونيا إيرينه:

هل أستطيع الكلام الآن يا سيّد؟

دون ديغو:

بل عليها هي أن تتكلم ومن دون ملقّن ولا مترجم.

دونيا إيرينه:

حين آمرُها أنا بذلك.

دون ديغو:

في إمكانك أن تفعلي ذلك، فهي من عليها أن تجيب... وأنا سأتزوج منها لا منك.

دونيا إيرينه:

أرى دون ديغو أنّك لن تتزوج من أيّة واحدة منّا. ما هو مفهومك عنّا؟... لقد كتب لي إشبينها قبل أيام، حين أعلمته بهذا الزواج، قائلا إنّه، وإن لم يرها منذ أن حملها إلى حوض التعميد، يحبّها كثيرا ويسأل عنها كلّ من مرّ ببلدة (بورغو دي أوسما)[١٧]، وهو يبعث إلينا دائما بتحياته بالبريد.

١٧- بورغو دي أوسما Burgo de Osma : بلدة من أعمال محافظة صوريا Soria الشمالية.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

حسنا سيّدتي. وماذا كتب الإشبين؟... وما علاقة هذا بما نحن فيه؟

دونيا إيرينه:

نعم يا سيّد، له علاقة بالطبع. ومع أنّني أنا من أقول ذلك، فما كان لراهب من رهبان دير (أتوجا) أن يكتب رسالة أروع من تلك التي كتبها الإشبين حول زواج البنت... على الرغم من أنّه ليس بالأستاذ ولا بالمجاز ولا أي شيء من هذا القبيل، بل هو شخص عادي، له عمل متواضع يكاد لا يسد رمقه...لكنّه حاذق وملمّ بكل شيء، حسن العبارة حسن الكتابة... قد لا تصدّق أنّ الرسالة كلّها تقريبا مكتوبة باللاتينية وتحتوي نصائح جيدة أسداها لي... فكأنّه يخمّن ما يجري لنا الآن.

دون ديغو:

لكن لم يحدث ما يوجب انزعاجك، سيدتي.

دونيا إيرينه:

تريد ألا أنزعج وأنا أستمع إليك تتحدّث عن ابنتي بعبارات...؟ فلا علاقات حب أخرى ولا ميول أخرى! ولو علمتُ بوجودها، لا قدّر الله، لقتلتها ضربا. ردّي عليه فهو يريد أن تتكلّمي أنتِ لا أنا. عددي له الخطباء الذين رفضتهم في مدريد وأنتِ في الثانية عشرة، وأولئك الذين خطبوك وأنتِ في الدير عند تلك المرأة القدّيسة. قولي له كلّ ذلك كي يطمئن ويهدأ و...

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

سيدتي. أنا أكثر هدوء منك.

دونيا إيرينه:

ردّي عليه.

دونيا فرانثيسكا:

لا أدري ماذا أقول. فقد احتدمّا وثارت أعصابكما.

دون ديغو:

لا يا ابنتي. ليس هناك من غضب. بل هي طريقة للتعبير في الكلام. ودونيا إيرينه تعلم مقدار احترامي لها.

دونيا إيرينه:

فعلا، وأنا شاكرة لك أفضالك معنا... ولذلك بالذات...

دون ديغو:

لا تتحدثي عن أفضال، فكلّ ما فعلته قليل... حسبي أن تكون دونيا باكيتا مسرورة.

دونيا إيرينه:

أوليس عليها أن تكون كذلك؟ أجيبي.

دونيا فرانثيسكا:

بلى سيّدي، أنا مسرورة.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

وألا يسبّب التغيير المرتقب لها أدنى شعور بالأسف.

دونيا إيرينه:

على العكس... لن يخطر على بالها عرس أجمل ولا أمتع .

دون ديغو:

وعلى هذا الافتراض يمكنني أن أؤكّد لك أنّها لن تندم على شيء. ستعيش معي معزّزة مكرّمة، وأرجو أن أحوز احترامها وصداقتها بما ستناله من حقوق ومنافع.

دونيا فرانثيسكا:

شكرا سيدي دون ديغو... فمن ليتيمة مسكينة معدمة مثلي!...

دون ديغو:

لكن لديك من الخصال النبيلة ما يجعلك جديرة بالكثير من النعم.

دونيا إيرينه:

تعالي هنا، اقتربي، باكيتا.

دونيا فرانثيسكا:

أمّي (تنهض وتعانق أمّها وتتودّد إحداهنّ للأخرى)

دونيا إيرينه:

أترين كم أحبّك؟

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

نعم سيدتي.

دونيا إيرينه:

وكم أريد الخير لك، فليس لي من أمنية غير أن أراك في مكانك قبل رحيلي؟

دونيا فرانثيسكا:

أعرف ذلك جيدا.

دونيا إيرينه:

يا ابنة روحي! أوليس عليك أن تكوني صالحة؟

دونيا فرانثيسكا:

بلى، سيدتي.

دونيا إيرينه:

آه، ألا تعلمين كم تحبّك أمّك؟

دونيا فرانثيسكا:

ألا أحبّك أنا أيضا؟

دون دييغو:

هيّا بنّا... لننتهيَ من هنا (ينهض دون دييغو ثم دونيا إيرينه) قبل أن يأتي أحدهم فيرانا نبكي كالصغار.

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

نعم. أنت على حق.

(يذهب الاثنان إلى حجرة دونيا إيرينه. تتبعهما دونيا فرانثيسكا. لكن ريتا، التي تخرج من الباب الخلفي، توقفها)

Twitter: @ketab_n

المشهد السادس

ريتا ودونيا فرانثيسكا

ريتا:

آنستي، آنستي!

دونيا فرانثيسكا:

ماذا تريدين؟

ريتا:

لقد وصل

دونيا فرانثيسكا:

ماذا؟

ريتا:

وصل للتو. لقد عانقته بعد إذنك، وهو الآن يصعد الدرج.

دونيا فرانثيسكا:

يا إلهي! وماذا عليّ أن أفعل؟

Twitter: @ketab_n

ريتا:

ما أظرف سؤالك! عجبا! المهم هو ألا تضيّعي الوقت في تكاليف الحب وحركاته. ادخلي في الموضوع... والزمي الحكمة... واحرصي على ألا يطول الحديث في المكان الذي نحن فيه... ها هو.

دونيا فرانثيسكا:

نعم إنّه هو.

ريتا:

أنا ذاهبة للاعتناء بهؤلاء الناس... تحلّي بالشجاعة، آنستي، وبالحزم.

(تدخل ريتا في حجرة دونيا إيرينه)

دونيا فرانثيسكا:

لا، لا؛ وأنا سأدخل أيضا... لكنّه لا يستحق منّي ذلك.

Twitter: @ketab_n

المشهد السابع

دون كارلوس ودونيا فرانثيسكا

(يخرج دون كارلوس من الباب الخلفي)

دون كارلوس:

باكيتا! حياتي! ها أنا ذا... كيف أنتِ، رائعتي؟

دونيا فرانثيسكا:

مرحباً بك.

دون كارلوس:

لم أنتِ حزينة؟... ألا يستأهل مجيئي فرحة أكبر؟

دونيا فرانثيسكا:

هذا صحيح؛ لكنّي رأيتُ أموراً أخرجتني عن طبعي... وأنت تعلم... نعم، تعلم ذلك جيدا... فبعد تلك الرسالة، جاؤوا في طلبي... وغدا إلى مدريد... أمّي موجودة هنا.

Twitter: @ketab_n

دون كارلوس:

أين؟

دونيا فرانثيسكا:

هناك في تلك الحجرة. (تشير إلى حجرة دونيا إيرينه)

دون كارلوس:

لوحدها؟

دونيا فرانثيسكا:

كلا سيّدي

دون كارلوس:

لا بدّ أنّها في صحبة الزوج الموعود. (يقترب من حجرة دونيا إيرينه، يتوقف ويعود أدراجه). أفضل... أليس هناك أحد غيره معها؟

دونيا فرانثيسكا:

لا أحد، أنهما وحدهما... ماذا تنوي أن تفعل؟

دون كارلوس:

لو أنني سايرت عاطفتي وما توحي به هاتان العينان إليّ، لارتكبت حماقة. لكنّ أمامنا من الوقت ما يكفي... ولا شكّ أنّه رجل شريف، وليس من العدل إهانته لمجرد أنّه يحب امرأة جديرة بالحب... أنا لا أعرف أمّك ولا... المهم، ليس في مقدورنا أن نفعل الآن شيئا... ما يهمّ أولا هو كرامتك.

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

هو مصمم على أن أتزوّج منه.

دون كارلوس:

لا يهم.

دونيا فرانثيسكا:

يريد أن يكون العرس حال وصولنا إلى مدريد

دون كارلوس:

كيف؟ لا. هذا لا.

دونيا فرانثيسكا:

الاثنان متفقان ويقولان...

دون كارلوس:

حسنا. ليقولا ما شاءا... لكنّ ذلك غير ممكن.

دونيا فرانثيسكا:

أمّي لا تفتأ تحدثني عن الموضوع. تهددني، لقد ملأتني خوفا... أمّا هو فيحثّ ويعرض عليّ أشياء وأشياء و...

دون كارلوس:

وأنتِ؟ كم منحته من الأمل؟... هل وعدتِه أن تحبيه كثيراً؟

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

يا لك من جاحد!... ألا تعلم أنّ...؟ جاحد!

دون كارلوس:

بلى، أنا لا أنكر ذلك، باكيتا... فأنا حبك الأول.

دونيا فرانثيسكا:

والأخير

دون كارلوس:

وسأضحي بحياتي قبل أن أتخلّى عن مكاني الذي أحتلّه في قلبك. فقلبك كلّه لي... هل ظنّي في محلّه؟ (يمسك بيديها)

دونيا فرانثيسكا:

ولمن عساه يكون؟

دون كارلوس:

يا رائعتي! ما أجمل ما تمنحينني من الأمل! كلمة واحدة من فمك تمنحني الأمان... وتمنحني العزيمة لفعل أيّ شيء... وأخيرا، هنا أنا ذا... لقد دعوتني لأدافع عنك، لأحرّرك، لأفي بوعد ألزمتُ نفسي به آلاف المرات. فلأجل هذا أتيتُ... وإن ذهبتم غدا إلى مدريد فأنا ذاهب إلى مدريد أيضا. والدتك تعرف مَن أنا... وفي مقدوري أن ألوذ هناك بجنب شيخ فاضل محترم هو أب وصديق قبل أن يكون عمّا، وليس لديه قريب أدنى مكانة ولا أحبّ إلى قلبه منّي، إنّه رجل

Twitter: @ketab_n

غني، فإن كان للمال هوى في نفسك، فإنّ هذا سيضيف سعادة إلى زواجنا.

دونيا فرانثيسكا:

لا قيمة لكلّ ثروة العالم عندي!

دون كارلوس:

أعلم ذلك. فليس للطمع أن يهزّ روحا بريئة كروحك.

دونيا فرانثيسكا:

لا أرغب ولا أعرف ثروة أعظم من أن أحبّ وأن أجد من يحبّني.

دون كارلوس:

ليس من ثروة غيرها... لكنّ عليك أن تهدئي وأن تنتظري أن يحوّل الحظ حزننا سعادةً دائمة.

دونيا فرانثيسكا:

وماذا علينا أن نفعل كي لا تحزن أمّي؟ ما أشدّ ما تحبّني! كنت أقول لها قبل قليل إنني لن أجلب لها حزنا ولن أبتعد عنها؛ وإنّني سأكون بنتا صالحة مطيعة دائما. وما أحنّها وهي تضمّني إلى صدرها! لقد أشعرني القليل الذي قلته لها بالراحة... لا أدري، لا أدري أيّ طريق عليك سلوكه للخروج من هذا المأزق.

دون كارلوس:

سأبحث أنا عن الطريق... أولا تثقين بي؟

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

كيف لا أثق بك؟ أتظنّ أنّني كنتُ سأظلّ حيّة لولا فسحة الأمل هذه؟ ماذا كنتُ سأفعل وأنا وحيدة يتجاهلني الجميع؟ لو لم تأت لقتلني الحزن، فأنا عاجزة عن طلب العون من أحد أو تفسير علّتي لأحد... لكنّك فعلتَ ما يفعله الفارس العاشق وقدّمتَ لي بحضورك البرهان على عظم حبك. (تنفعل وتبكي)

دون كارلوس:

أتبكين؟ كم يقنعني بكاؤك! نعم، باكيتا، أنا بمفردي قادر على دفع كل مَن يريدون ظلمك. ومن ذا الذي يقوى على الوقوف في وجه عاشقٍ معشوق؟ لا بأس عليك.

دونيا فرانثيسكا:

هل هذا ممكن؟

دون كارلوس:

لقد ربط الحبّ روحينا ولن يفرّق بينهما غير الموت.

Twitter: @ketab_n

المشهد الثامن

ريتا ودون كارلوس ودونيا فرانثيسكا

ريتا:

هيّا آنستي، ادخلي. فوالدتك تسأل عنك. سأجلب العشاء، عليكما الافتراق في الحال... أمّا أنت، أيّها السيد العاشق، ففي إمكانك الانصراف.

دون كارلوس:

وهو كذلك، فليس من المناسب إثارة الشكوك... ولا شيء عندي أضيفه.

دونيا فرانثيسكا:

ولا أنا.

دون كارلوس:

إلى اللقاء غدا. وعلى ضوء النهار سنرى منافسنا السعيد.

ريتا:

رجل شريف جداً وغني جداً وكيّس. يرتدي جبّة طويلة وقميصاً نظيفا ويخفي أعوامه الستين تحت شعره المستعار. (تذهب من الباب الخلفي).

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

إلى الغد

دون كارلوس:

وداعا، باكيتا.

دونيا فرانثيسكا:

نمْ وارتح.

دون كارلوس:

وهل من راحة مع الغيرة؟

دونيا فرانثيسكا:

الغيرة ممّن؟

دون كارلوس:

طابت ليلتك... اهنئي بنومك، باكيتا.

دونيا فرانثيسكا:

وهل من نوم مع الحب؟

دون كارلوس:

وداعا، حياتي.

دونيا فرانثيسكا:

وداعا. (تدخل إلى حجرة دونيا إيرينه).

Twitter: @ketab_n

المشهد التاسع

دون كارلوس وكالاموتشا وريتا

دون كارلوس:

يأخذها منّي! (يتمشّى مضطربا) كلا... ليكنْ مَن يكون، لن يأخذها مني. ولن تتهوّر أمّها وتصرّ على إتمام الزواج رغم إرادة ابنتها، ومع وجودي أنا في الوسط... ستون عاماً!... لا شكّ أنّه غنّي جدا... اللعنة على المال! فكم يخلق من المشاكل.

كالاموتشا:

سيدي (يخرج من الباب الخلفي للمسرح) لدينا نصف جدي مشوي، أو هكذا يبدو... سلطة رائعة من جرجير الماء، من دون بيش[١٨] أو أيّة مادة غريبة، غسلتها وجففتها وتبّلتها بيدي الخاطبتين هاتين، وهي تغنيك عن كلّ ما عداها. ولدينا أيضا خبز (ميكو) ونبيذ (تيرثيا)[١٩]... وإذا كان علينا أن نتعشّى وننام، فمن الأفضل أن...

١٨- بيش: مادة عشبية شامة.

١٩- ميكو Meco بلدة قريبة من الكالا. و تيرثيا Tercia اسم شارع فيه محل لبيع النبيذ الجيد.

Twitter: @ketab_n

دون كارلوس:

هيا... وأين سنتعشّى؟

كالاموتشا:

تحت... هناك أمرتُ أن تعدّ منضدة ضيّقة بائسة تشبه مصطبة البيطار.

ريتا:

من يريد حساء؟ (تخرج من الباب الخلفي للمسرح وهي تحمل أطباقا وفنجانا وملعقة ومناشف)

دون كارلوس:

هنيئا!

كالاموتشا:

إن رغبتْ الصبيّة الرائعة في أن تتعشى جديا فلترفع إصبعها.

ريتا:

لقد أكلت الصبيّة الرائعة نصف قدر من الكفتة... لكنّها تشكر لك الدعوة، سيدي العسكري (تدخل حجرة دونيا إيرينه)

كالاموتشا:

شاكرة أريدك أنا، يا حبّة عينيّ.

دون كارلوس:

فلننصرف!

Twitter: @ketab_n

كالاموتشا:

آي، آي، آي!... (يسير كالاموتشا نحو الباب الخلفي ثم يعود؛ يتحدث هو ودون كارلوس بتكتم ثمّ يتقدّم كالاموتشا لتحيّة سيمون.) هاي! انظر!

دون كارلوس:

ماذا؟

كالاموتشا:

ألا ترى مَن هناك؟

دون كارلوس:

إنّه سيمون!

كالاموتشا:

إنّه هو... ولكن ما الذي...؟

دون كارلوس:

وماذا سنفعل؟

كالاموتشا:

وما أدراني؟ أستدرجه، أكذبْ عليه و... هل تسمح لي أن...؟

دون كارلوس:

نعم؛ اكذب ما بدا لك... ما الذي جاء بهذا الرجل؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد العاشر

سيمون ودون كارلوس وكالاموتشا

(يخرج سيمون من الباب الخلفي للمسرح)

كالاموتشا:

سيمون! أنتَ هنا؟

سيمون:

مرحبا كالاموتشا. كيف حالك؟

كالاموتشا:

رائع

سيمون:

كم أنا مسرور لـ ...!

دون كارلوس:

يا رجل! أنت في (الكالا)؟ يا للصدفة؟

Twitter: @ketab_n

سيمون:

أوه، أنت هنا سيدي! يا للقديسين!

دون كارلوس:

وعمّي؟

سيمون:

بخير.

كالاموتشا:

هل بقي في مدريد أم...؟

سيمون:

وما أدراني...؟ شيء من هذا القبيل! ما أبعدني أنا الآن عن... وأنت، في كل مرّة أجمل... فأنت ذاهبٌ إذن لرؤية عمّك، أليس كذلك؟

كالاموتشا:

لا شكّ أنّك جئت في مهمّة كلفك بها سيّدك.

سيمون:

وأيّ حرّ أصابني وأي غبار في هذا الطريق!

كالاموتشا:

هل لمال تجبيه؟

Twitter: @ketab_n

دون كارلوس:

ربّما. فلعمّي بعض الأملاك في (أخالبير)[٢٠]... فهل جئت لهذا؟

سيمون:

ما أكسلَ الناظرَ الذي يعمل عنده! وما من مزارع أكثر تملّقا ودناءة منه في كلّ الأطيان... فأنت قادم إذن من سرقسطة؟

دون كارلوس:

تصوّر!

سيمون:

أم ذاهب إلى هناك؟

دون كارلوس:

إلى أين؟

سيمون:

إلى سرقسطة. أليست حاميتك هناك؟

كالاموتشا:

يا رجل! إن كنّا خرجنا من مدريد الصيف الماضي، ألا يعني هذا أننا سرنا أكثر من أربعة فراسخ؟

٢٠- أخالبير Ajalvir: بلدة تقع شرق العاصمة مدريد.

Twitter: @ketab_n

سيمون:

وما أدراني؟ البعض يذهبون على جياد مؤجّرة ويتأخرون أكثر من أربعة أشهر للوصول... لا شكّ أنّه طريق بالغ السوء.

كالاموتشا:

(لنفسه مبتعدا عن سيمون) اللعنة عليك وعلى طريقك، وملعونة الصعلوكة التي أرضعتك

دون كارلوس:

لكنّك لم تقل لي بعد إن كان عمّي في مدريد أم في (الكالا)، و لم تخبرني أيضا بسبب مجيئك، ولا...

سيمون:

حسنا، سأردّ عليك... نعم سيّدي، سأخبرك... إذاً... السيّد قال لي...

Twitter: @ketab_n

المشهد الحادي عشر

دون دييغو ودون كارلوس وسيمون وكالاموتشا

دون دييغو:

كلا (من الداخل)، ليس ضروريا؛ لدينا قنديل هنا. طابت ليلتك، ريتا.

(يضطرب دون كارلوس وينسحب إلى أحد جوانب المسرح)

دون كارلوس:

إنّه عمّي!

دون دييغو:

سيمون! (يخرج من حجرة دونيا إيرينه ويتّجه نحو حجرته؛ ينتبه إلى دون كارلوس ويقترب منه. ينير له سيمون ثم يعاود ترك القنديل على المنضدة)

سيمون:

نعم سيّدي.

Twitter: @ketab_n

دون كارلوس:

(مع نفسه) لقد ضاع كلّ شيء!

دون ديغو:

هيّا... لكن... من هناك؟

سيمون:

صديق لك، سيّدي.

دون كارلوس:

(مع نفسه) أنا هالك!

دون ديغو:

أي صديق؟... ماذا؟... قرّب هذا القنديل.

دون كارلوس:

عمّي. (يحاول تقبيل يد دون ديغو، الذي يبعده عنه بغضب)

دون ديغو:

ابتعد عنّي.

دون كارلوس:

سيّدي.

Twitter: @ketab_n

دون دييغو:

ابتعد... لا أدري كيف لا... ماذا تفعل هنا؟

دون كارلوس:

إن غضبت و...

دون دييغو:

ماذا تفعل هنا؟

دون كارلوس:

مصيبة مّا جاءتْ بي.

دون دييغو:

أنت مصدر انزعاجي الدائم! لكن... (يقترب من دون كارلوس) ماذا تقول؟ هل حدثت مصيبة؟ تكلّم... ماذا جرى لك؟ لماذا أنت هنا؟

كالاموتشا:

لأنّه وفيّ لك ومخلص وهو يحبّك كثيرا، و...

دون دييغو:

أنا لا أسألك أنتَ... لماذا أتيت من سرقسطة من دون علمي؟... ولماذا اضطربتَ حين رأيتني؟... أرى أنّك أتيتَ فعلا قبيحا، أليس كذلك؟ لا بدّ أنّك أتيت حماقة ستكلّف عمّك المسكين حياته.

Twitter: @ketab_n

دون كارلوس:

كلا سيّدي. لن أنسى كلماتك لي عن الشرف والحكمة.

دون ديبغو:

فلماذا أتيت إذاً؟ ألمبارزة أم لديون أم لمشكلة مع رؤسائك؟... أخرجني من حيرتي، كارلوس... ولدي، أخرجني من هذا الضيق.

كالاموتشا:

الأمر كلّه ليس أكثر من...

دون ديبغو:

لقد طلبتُ منك أن تسكتَ... تعال هنا. (يأخذه من يده ويتجه إلى أحد أطراف خشبة المسرح ويتكلم معه بصوت منخفض) أخبرني بما حدث.

دون كارلوس:

هو طيش وتجاهل لأوامرك والمجيء إلى مدريد من دون أذنك... أنا متأسف جدا للضيق الذي سببته لك بحضوري.

دون ديبغو:

وهل من أمر آخر؟

دون كارلوس:

كلا، سيدي.

Twitter: @ketab_n

دون دييغو:

فلماذا تتحدّث عن مصيبة إذاً ؟

دون كارلوس:

أبدا. إنّها عثوري بحضرتك في هذا المكان وتسببي في كل هذا الضيق لك وأنا الذي كنتُ أتأمل مفاجأتك في مدريد، والبقاء في صحبتك عدة أسابيع والعودة مسرورا بعد رؤيتك.

دون دييغو:

لا أكثر؟

دون كارلوس:

لا أكثر.

دون دييغو:

هل أنت متأكّد ؟

دون كارلوس:

نعم سيدي... أنا أتيت لأجل هذا. ولا شيء أكثر.

دون دييغو:

بالله عليك؟... ألا ترى أنّ عمليات الهروب هذه لا يمكن أن... لا...لا. وهل هناك من يسمح لضابط أن ينصرف متى شاء ويترك حاميته؟ فإن تكررت هذه الحالة كثيرا فلنقرأ على العسكريّة السلام... هذا غير ممكن.

Twitter: @ketab_n

دون كارلوس:

لكنّنا الآن يا عمّي في وقت سلم؛ والخدمة العسكرية في سرقسطة غير صارمة كما هي الحال في المدن الأخرى، حيث لا تجدُ الحامية وقتا للراحة... أرجوك أن تصدقني حين أقول إنّ هذه السفرة هي بإجازة من رؤسائي وبموافقتهم، فأنا كذلك أحسب حسابا لسمعتي، وما أتيت إلا لأنني متأكد من أنّهم لا يحتاجون إليّ.

دون دييغو:

الجنود في حاجة إلى ضابطهم دائما، الملك عيّنك هناك لكي تدربهم وتحميهم وتعطيهم المثل في الطاعة والشجاعة والأخلاق.

دون كارلوس:

حسنا، لكنّي ذكرتُ لك الأسباب...

دون دييغو:

كلّ هذه الأسباب لا قيمة لها عندي... بل أردتَ رؤية عمّك!... وعمّك لا يريد أن يراك كل ثمانية أيّام، بل يريد أن يراك رجلا متزنا، يؤدّي واجباته. هذا هو ما يريده عمّك... لكن (يرفع صوته ويبدأ السير بقلق) سأتخذُ إجراءاتي كي لا تتكرر هذا الحماقات... وما عليك الآن فعله هو أن ترحل فورا.

دون كارلوس:

سيّدي، إذا...

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

ليس من ذلك بدّ...يجب أن ترحل فورا...ألاّ تبيت الليلة هنا.

كالاموتشا:

لكنّ الجياد ليست مستعدّة الآن...ولا تستطيع الحركة.

دون ديغو:

وأنت (موجها كلامه إلى كالاموتشا) معهم والحقائب إلى الخان الكائن خارج المدينة. وأنت (موجها كلامه إلى دون كارلوس) عليك أن ترحل... هيّا (إلى كالاموتشا) تحرّك، أيّها التحفة! أنزل كل شيء. ادفع ما أنفقتم وأخرج الخيل وانصرفا... أنت (موجها كلامه إلى سيمون) ساعده... كم لديك من النقود؟

سيمون:

عندي أربع أونسات أو ست. (يخرج بعض القطع النقديّة من جيبه ويعطيها إلى دون ديغو)

دون ديغو:

أعطنيها... هيّا، ماذا تفعل؟ (إلى كالاموتشا). ألم أقل لك أنّ عليك أن تتحرك في الحال؟... طيران. وأنت (إلى سيمون) اذهب معه، ساعده ولا تفارقه قبل أن ينصرفا. (يدخل الخادمان إلى حجرة دون كارلوس).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الثاني عشر

دون دييغو ودون كارلوس

دون دييغو:

خذ. (يعطيه النقود). هذا يكفيك للطريق... هيّا، حين أصرّف الأمور هكذا فأنا أعرف ما أفعل... واعلمْ أنّ ذلك في مصلحتك، فما أقدمتَ عليه هو طيش وقلّة عقل؟... وما عليك أن تبتئس من فعلي ولا أن تحسبه تراجعا في شعوري نحوك... أنت تعلم كم أحبّك؛ وسأكون لك نعم الصديق كما كنتُ دائما إن أنت تصرّفت بما يرضي.

دون كارلوس:

أعلم ذلك.

دون دييغو:

حسن. فافعل الآن ما أمرتك به.

دون كارلوس:

سأفعل ومن دون إبطاء.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

إلى خان أطراف المدينة (موجّها كلامه إلى الخادمين، اللذين يخرجان بالمتاع من حجرة دون كارلوس نحو باب المسرح الخلفي). هناك يمكنك المبيت بينما الخيل تأكل وتستريح... ولا تعد إلى هنا لأيّ سبب كان ولا تدخل إلى المدينة... حذار! وارحلا عند الساعة الثالثة أو الرابعة. وعليك أيضا أن تبلغني بساعة خروجك. مفهوم؟

دون كارلوس:

مفهوم، سيّدي.

دون ديغو:

تنبّه إلى أوامري.

دون كارلوس:

نعم، سيّدي. سأفعل ما أمرتني به.

دون ديغو:

حسن جدا... وداعا... أنا غفرت لك كلّ شيء... في رعاية الله... وسأعلم بوصولك إلى سرقسطة، فلا تظنّن أنّني جاهل بما فعلته في المرة الأخيرة.

دون كارلوس:

ماذا فعلتُ؟

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

قلت لك أنّني أعرف ما فعلت، أنا غافر لك كل شيء، فماذا تريد؟ وليس الوقت مناسبا للحديث عن ذلك. فاذهب.

دون كارلوس:

استودعك الله. (يبدو وكأنّه يذهب لكنّه يعود)

دون ديغو:

أتذهب من دون تقبيل يد عمّك؟

دون كارلوس:

لم أجرؤ على ذلك. (يقبّل يد دون ديغو ويتعانقان)

دون ديغو:

دعني أعانقك، فلربّما لن يرى أحدنا الآخر.

دون كارلوس:

ماذا تقول؟ لا سمح الله!

دون ديغو:

من يدري يا ولدي! أعليك ديون؟ أينقصك شيء؟

دون كارلوس:

كلا، سيّدي. في الوقت الحاضر لا.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

هذا كثير، فأنت دائما تنفق من دون حساب... لأنّك تعوّل على جيب عمّك... طيّب؛ سأكتب إلى السيّد أثنار كي يعطيك مائة دوبلون[٢١] من حسابي. وانظر أنتَ كيف تنفقها. هل تلعب القمار؟

دون كارلوس:

كلا سيدي. لم ألعب في حياتي!

دون ديغو:

إيّاك والقمار... وسفرة سعيدة. ولا تتهوّر: لتكن أيامك اعتيادية وحسب... هل أنت مسرور؟

دون كارلوس:

كلا سيّدي. لأنّك تحبّني كثيرا وتغمرني بأفضالك بينما أجازيك أنا شرّ جزاء.

دون ديغو:

لا تتكلّم عمّا مضى. وداعا.

دون كارلوس:

هل أنتَ غاضب عليّ؟

٢١- دوبلون: عملة ذهبيّة قديمة.

Twitter: @ketab_n

دون دييغو:

كلا...لقد انزعجتُ كثيرا، ولكن كل شيء انتهى... فلا تجعلني آسف.(يضع كلتا يديه على كتفيه) وتصرّف تصرّف الرجال.

دون كارلوس:

لا يخامرنّك في ذلك شك.

دون دييغو:

وتصرّف كما يتصرّف الضابط الشريف

دون كارلوس:

أعدك بذلك.

دون دييغو:

وداعا كارلوس (يتعانقان)

دون كارلوس:

(لنفسه وهو يخرج) ها أنا أتركها!... ستضيع منّي إلى الأبد!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الثالث عشر

دون ديغو:

ما أحسن ما تقبّل الأمر... سيسمع بالخبر لاحقاً... ولكن ليس سواء أن أكتب له أو أن... ولكن بعد الانتهاء من الموضوع، لن يهمّ شيء. لم يتغيّر احترامه لعمّه! كم هو مطيع! (يغالب دموعه ويحمل القنديل ويذهب إلى حجرته. تخيّم الظلمة على المسرح لهنيهة).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الرابع عشر

دونيا فرانثيسكا وريتا

(تخرجان من حجرة دونيا إيرينه. تخرج ريتا القنديل وتضعه على المنضدة)

ريتا:

ما هذا الهدوء!

دونيا فرانثيسكا:

ربّما دخلا إلى حجرتهما... لا شكّ أنّهما متعبان.

ريتا:

هذا هو السبب.

دونيا فرانثيسكا:

يا له من طريق طويل!

ريتا:

هذا ما يأمر به الحب آنستي!

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

نعم. يمكنك قول ذلك: الحب... وما الذي لم أفعله أنا من أجله؟

ريتا:

دعكِ من ذلك، فما هذه بآخر المعجزات. وعندما نصل إلى مدريد ستكون هي... كم سيخيب ظنّ دون دييغو المسكين! لكن...ألا ترين ما أطيبه من سيّد، وكم يبعث على الشفقة...

دونيا فرانثيسكا:

هذه هي المشكلة. فلو أنّه كان رجلا وضيعا لما وافقت أمّي على طلبه ولما اضطررتُ أنا إلى إخفاء نفوري وتمنّعي. لكن الوضع قد تبدّل يا ريتا، وجاء دون فيليكس، فما عدتُ أخشى أحدا. وما دام حظي صار بين يديه فأنا أعدّ نفسي أسعد نساء العالم.

ريتا:

أه! لقد تذكّرت... منذ برهة كلّفتني بذلك... أرى أنّ رأسي مع مغامرات الحبّ هذه صار هو الآخر... أنا ذاهبة لجلبه (تسير صوب حجرة دونيا إيرينه)

دونيا فرانثيسكا:

إلى أين تذهبين؟

ريتا:

إلى الطائر، فقد فاتني أن أخرجه من مكانه.

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

حسنا! اجلبيه كي لا يبدأ بالصلاة كما فعل ليلة البارحة... إنّه قرب النافذة... وادخلي بهدوء كي لا توقظي أمّي.

ريتا:

نعم؛ وضوضاء الخيل تحت؟... ما من نوم حتّى نبلغ منزلنا في شارع (اللوبو) رقم سبعة الحجرة الثانية... وهذا الباب الملعون الذي يصدر صريرا، والذي ...

دونيا فرانثيسكا:

يمكنك حمل القنديل.

ريتا:

لا أحتاجه فأنا أعرف أين هو. (تذهب إلى حجرة دونيا إيرينه)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الخامس عشر

سيمون ودونيا فرانثيسكا

(يخرج سيمون من الباب الخلفي للمسرح)

دونيا فرانثيسكا:

ظننتُ أنّكم نمتم.

سيمون:

من المؤكّد أنّ سيّدي أخلد إلى النوم. أمّا أنا فلم أقرّ بعدُ أين عليّ أن ألقي برحالي... وما أشدّ نعاسي!

دونيا فرانثيسكا:

مَن وصل مِن النزلاء الجدد؟

سيمون:

لم يصل أحد. كان هناك بعضهم، لكنهم رحلوا.

دونيا فرانثيسكا:

تقصد الحوذيين؟

Twitter: @ketab_n

سيمون:

كلا سيّدتي. بل ضابط وخادمه. يبدو أنّهما سيرحلان إلى سرقسطة.

دونيا فرانثيسكا:

مَن هما؟

سيمون:

مقدّم في الجيش ومرافقه.

دونيا فرانثيسكا:

أوَ كانا هنا؟

سيمون:

نعم سيدتي. هناك في تلك الحجرة.

دونيا فرانثيسكا:

لم أرهما.

سيمون:

يبدو أنّهما وصلا هذا العصر و...يبدو أنّهما أنجزا المهمة التي جاءا من أجلها... وذهبا... طبت مساءً آنستي. (يذهب إلى حجرة دون دييغو)

Twitter: @ketab_n

المشهد السادس عشر

ريتا ودونيا فرانثيسكا

دونيا فرانثيسكا:

يا إلهي! ما هذا؟... أنا لا أقوى على الوقوف... يا لشقائي! (تجلس على كرسي قرب المنضدة)

ريتا:

آنستي، أنا جئتك ميتة. (تخرج قفص الطائر وتتركه على المنضدة؛ تفتح باب حجرة دون كارلوس ثم تعود)

دونيا فرانثيسكا:

أه، فالأمر صحيح إذاً! وأنت تعلمين ذلك أيضا؟

ريتا:

دعيكِ من هذا فما زلت لا أصدّق ما رأيت... لا أحد هنا...، لا حقائب، ولا ملابس ولا... لكن، كيف استطاع خداعي؟ لقد شاهدتهما بنفسي يخرجان؟

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

وكانا هما؟

ريتا:

الاثنان

دونيا فرانثيسكا:

ذهبا خارج المدينة؟

ريتا:

أقول لك إنّني لم أغفل عنهما حتّى خرجا عبر بوابة الشهداء... وهي على بعد خطوة من هنا.

دونيا فرانثيسكا:

وهذا هو الطريق إلى أراغون؟[٢٢]

ريتا:

نعم هو كذلك.

دونيا فرانثيسكا:

نذل! يا له من نذل!

٢٢- أراغون Aragón: إقليم شمال شرق اسبانيا يقع على الحدود مع فرنسا.

Twitter: @ketab_n

ريتا:

آنستي

دونيا فرانثيسكا:

أيّة إهانة وجّهتْها لكَ هذه الشقيّة؟

ريتا:

جسمي كلّه يرتجف... لكن...هذا أمرٌ غير مفهوم...أنا لا أدرك سببا لهذا الطارئ.

دونيا فرانثيسكا:

ألم أحبّه أكثر من حياتي؟... ألم يرَ أنّي مجنونة بحبّه؟

ريتا:

لا أدري ما أقول وأنا أتأمّل فعلا حقيرا كهذا.

دونيا فرانثيسكا:

ماذا عساك تقولين غير أنّه لم يحببني قط، وأنّه لم يكن شهما...وهل جاء لهذا وحسب؟ ليخدعني ويتركني هكذا؟ (تنهض معتمدة على ريتا)

ريتا:

لا يبدو لي طبيعيا أن يأتي لقصد آخر...لغيرة... ولماذا الغيرة؟...بل على الغيرة أن تجعله يحبّك أكثر... وما هو بالجبان، فلا يمكن القول بأنّه خاف من منافسه.

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

أنك تتعبين نفسك عبثا... قولي إنّه خائن، قولي إنّه وحش قاس، لتلخّصي كلّ مقال.

ريتا:

لننصرف من هنا، فربّما يأتي أحد ما و...

دونيا فرانثيسكا:

نعم، هيّا بنا... لنندب حظنا... أترين على أيّة حال تركني؟ أترين كم هو سيء؟

ريتا:

بلى، سيدتي؛ لقد اكتشفت حقيقته.

دونيا فرانثيسكا:

ما أحسن ما مثّل وادّعى!... ومع من؟ معي. فهل أستحق أن أخدع بهذه الطريقة الماكرة؟ وهل هذه هي المكافأة التي يستحقها قلبي؟ يا إلهي! ما جريمتي؟ وما هو ذنبي؟

(تأخذ ريتا القنديل وتذهبان سويّة إلى حجرة دونيا فرانثيسكا)

Twitter: @ketab_n

الفَصْلُ الثّالِث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الأوّل

دون ديغو وسيمون

(المسرح مظلم وعلى المنضدة قنديل فيه شمعة مطفأة وقفص الطائر. سيمون مسلتق على الدكّة)

دون ديغو:

(يخرج من حجرته وعليه رداء البيت). إنْ لم أنم هنا فعلى الأقل لن أذوب... يا لتلك الحجرة... ويا لشخيره! ... سأتركه ينام حتى طلوع النهار، ولن يتأخر...(يستيقظ سيمون وينهض) ما هذا؟ حذار أن تقع يا رجل!

سيمون:

ماذا؟ هل أنتَ هنا سيدي؟

دون ديغو:

نعم. لقد خرجتُ، فالبقاء في الداخل مستحيل.

سيمون:

أنا نمت، والحمد لله، كالإمبراطور، على الرغم من أنّ الفراش قاس بعض الشيء.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

ما أسوأ تشبيهك! لو أنّك قلت إنّك نمت كما ينام رجل فقير لا يملك مالا ولا طموحا ولا هموما ولا تأنيب ضمير.

سيمون:

فعلا. كلامك صحيح. كم الساعة الآن؟

دون ديغو:

منذ قليل دقت ساعة القديس (خوستو) الثالثة، إن لم أكن مخطئا في حسابي.

سيمون:

لا بدّ أنّ فارسينا يمضيان الآن في طريقهما بسرعة البرق.

دون ديغو:

أجل. من الطبيعي أنّهما خرجا... لقد وعدني بذلك، وآمل أنّه أوفى بوعده.

سيمون:

ليتك رأيتَ كم كان محزونا ومهموما حين تركتُه!

دون ديغو:

كان لا بدّ من ذلك.

Twitter: @ketab_n

سيمون:

نعم، أعرف.

دون ديغو:

ألا ترى أنّه جاء في وقت غير مناسب؟

سيمون:

معك حق. ومن دون إذنك أو إبلاغك ومن دون طارئ يدعو إلى ذلك. لقد أساء التصرّف، ولكنّي أظنّ أنّ عنده من الخصال ما يجعلك تغفر له وتسامحه. وأرى ألا تستمر عقوبته وقتا أطول، أليس كذلك؟

دون ديغو:

كلا. كلا يا رجل. فطلبي منه العودة شيء... لقد رأيت في أيّ ظرف جاءنا... أؤكّد لك أنني شعرتُ بانقباض في قلبي حين رأيته ينصرف. (تسمع من بعيد ثلاث ضربات بالكف ثمّ يسمع صوت عزف على آلة موسيقية). ما هذا الصوت؟

سيمون:

لا أدري... ناس يمرّون في الشارع. ربّما هم الفلاحون.

دون ديغو:

اسكتْ.

سيمون:

عجبا. لدينا موسيقى، في ما يبدو.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

نعم. إذا أجادوا العزف.

سيمون:

من عساه يكونُ ذلك العاشق البائس الذي يعزف في هذه الساعة في زقاق قذر كهذا؟ أراهن أنّ هناك مَن يغازل صبيّة الفندق، التي تشبه قرداً طويل الذنب.

دون ديغو:

ربّما.

سيمون:

ها هم يبدؤون . لنستمع...

(تعزف سوناتا من الداخل).

[(دون كارلوس في الشارع يغنّي على أنغام الآلة الموسيقية وبصوت خفيض. يتقدم دون ديغو قليلا صوب النافذة)

إن نامتْ معبودتي وأخلدتْ

فلا عكّر بكائي هدوءها اللذيذ.

وأنتَ أيّها الحب

توّجْها بالسعادة وهي نائمة.

Twitter: @ketab_n

فإن شطّ فكرُها وحسبتني غائبا

أو ثارت غيرتُها

فسأشرحُ لها ألمي القاسي المبرّح.

دون دييغو:

غناء جميل، لكنّه يغنيّ بصوت خفيض]

سيمون:

أنا أقول لك إنّ الحلاق الصعلوك يعزف عزفا جميلا.

دون دييغو:

كلا. ما مِن حلاّق يجيد العزف هكذا مهما بلغتْ براعتُه في الحلاقة.

سيمون:

هل تريد أن نطلّ قليلا لنرى [هذا البلبل]؟

دون دييغو:

كلا. دعهم...إنّهم مساكين! من يدري ما معنى هذه الموسيقى عندهم... أنا لا أحبّ أن أضايق أحدا. (تخرج دونيا فرانثيسكا وريتا من حجرتهما وتتجهان إلى النافذة فينتحي دون دييغو وسيمون جانبا ويراقبان)

Twitter: @ketab_n

سيمون:

سيدي! بسرعة إلى هنا.

دون ديغو:

ماذا تريد؟

سيمون:

فُتح باب تلك الحجرة وفاح عطرٌ حريميّ.

دون ديغو:

حقا؟... لنختبئ.

Twitter: @ketab_n

المشهد الثاني

دونيا فرانثيسكا وريتا ودون دييغو وسيمون

ريتا:

رويدكِ، آنستي

دونيا فرانثيسكا:

أنّني أتحسّسُ طريقي. فهل أحسنُ ذلك؟ (يعود صوت الموسيقي)

ريتا:

نعم، سيدتي... لكنّهما يعاودان العزف... اسمعي...

دونيا فرانثيسكا:

لا تتحركي... لنعرف أولا إن كان هو.

ريتا:

لا شكّ أنّه هو... الإشارات لا يمكن أن تكذب.

دونيا فرانثيسكا:

اسكتي... [ها هو يغنّي.

Twitter: @ketab_n

دون كارلوس (يغنّي):

إن نامتْ معبودتي وأخلدتْ...]

نعم. إنّه هو. يا إلهي! (تقترب ريتا من النافذة وتفتح الزجاج وتصفّق ثلاث مرات. تتوقف الموسيقى). اذهبي وردّي... بشراك قلبي. إنّه هو.

سيمون:

هل سمعتَ سيدي؟

دون ديغو:

نعم.

سيمون:

وماذا يعني ذلك؟

دون ديغو:

اسكت.

دونيا فرانثيسكا:

(تطل من النافذة. تظل ريتا وراءها. نقاط التعليق تدلّ على توقفات طويلة بعض الشئ) أنا... وماذا عساي أفكّر وأنا أرى ما فعلته؟...[لكن دعنا نوضّح الأمور] لِمَ هذا الهروب؟...[أخرجني من ظنوني لأعرف ما عليّ أن أنتظر؟...] ريتا (تبتعد عن النافذة وتعود بعد ذلك لتطل منها) صديقتي، انتبهي بربّك، وإن شعرت بحركة فبلغيني في الحال..

Twitter: @ketab_n

إلى الأبد؟ يا لشقائي! [..تتحدّث عن واجب؟ وهل لديك واجب آخر غير مواساة هذه التعيسة الشقيّة؟]... حسنا، ارمها...لكنّني لا أفهم... آي دون فليكس! لم أرك قط بهذا الخجل...(يرمون برسالة تسقط عبر النافذة في المسرح. تبحث عنها دونيا فرانثيسكا وحين لا تعثر عليها تعاود الإطلالة من النافذة.) كلا. كلا لم ألتقطها؛ لكنّها سقطت بلا شك هنا...وعليّ أن أنتظر حتّى حلول النهار لأعرف لماذا تركتني هنا لأموت؟ [لا. أنا أريد أن تقول لي سبب رحيلك واضطرابك ولهجتك هذه الغامضة الغريبة عليّ...] نعم، أنا أريد أن أسمعها منك. فحبيبتك باكيتا تطلب ذلك منك... وكيف تتصوّر حال قلبي؟... ما عاد صدري يتسع له... قل...تكلّم. (يتقدم سيمون قليلا، يتعثر بالقفص فيسقطه)

ريتا:

آنستي، لننصرف من هنا...عجّلي، فهناك أحد غيرنا.

دونيا فرانثيسكا:

يا لشقائي!... دلّيني على الطريق.

ريتا:

هيّا. (تصطدم أثناء انسحابها بسيمون. تنصرف الاثنتان إلى حجرة دونيا فرانثيسكا). آي!

دونيا فرانثيسكا:

أنا هالكة!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الثالث

دون ديغو وسيمون

دون ديغو:

ما تلك الصرخة؟

سيمون:

أحد الأشباح اصطدم بي وهو ينسحب.

دون ديغو:

اقترب من تلك النافذة لعلّك تجد ورقة على الأرض...تباً!

سيمون:

(يتحسس الأرضيّة بالقرب من النافذة). لا أجد شيئا سيدي.

دون ديغو:

ابحث جيدا، لا بدّ أنّها هناك.

سيمون:

هل رموا بها من الشارع؟

Twitter: @ketab_n

دون ديبغو:

نعم...أيّ عاشق هذا؟ هي ابنة ستة عشر وقد نشأت في الدير! لقد تبخّرتْ كلّ أحلامي.

سيمون:

ها هي. (يعثر على الرسالة ويعطيها لدون ديبغو)

دون ديبغو:

انزل إلى تحت وأتِ لي بقنديل... من الإسطبل أو من المطبخ... وعد به في الحال. (ينصرف سيمون من باب المسرح الخلفي)

Twitter: @ketab_n

المشهد الرابع

دون ديغو:

ألومُ مَن؟ (يتكئ على مسند الكرسي). أهي الجانية أم أمها أم خالتها أم أنا؟ وعلى من... على مَن أصبّ غضبي، الذي لن أستطيع كبحه مهما حاولت؟ لقد زيّنتها الطبيعة في عينيّ!...وما أجمل الأحلام التي رسمتُها! والسعادةَ التي منّيتُ نفسي بها!... غيرة!... أنا؟... أفي هذه السن أغار؟ بل هو الخزي... وهذا القلق الذي أحسّه، وهذا السخط، وهذه الرغبة في الانتقام، من أين جاءت؟ وماذا أسمّيها؟ مرة أخرى يبدو أنّ...(يتنبّه إلى صوت باب حجرة دونيا فرانثيسكا، فينسحب إلى أحد جوانب المسرح) نعم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الخامس

ريتا ودون ديغو وسيمون

ريتا:

لقد انصرفا...(تراقب وتتسمّع ثم تطل من النافذة وتبحث عن الرسالة في الأرض.) يا إلهي!... لا بدّ أن الرسالة مكتوبة جيدا، لكن السيد فليكس صعلوك كبير... يا للفتاة المسكينة! ستموت لا محالة... لا شيء، ليس في الشارع من أحد، ولا حتى الكلاب... ليتنا لم نعرفهم! وماذا عن هذه الورقة الملعونة؟...ما أصعب موقفنا إن لم تظهر!... وماذا سيقول؟... أكاذيب في أكاذيب ولا شيء غير الأكاذيب.

سيمون:

ها هو القنديل. (يخرج بالضوء. تتفاجأ ريتا)

ريتا:

لقد ضعتُ!

دون ديغو:

(يقترب) ريتا! أنتِ هنا؟

Twitter: @ketab_n

ريتا:

نعم سيّدي؛ فقد...

دون ديغو:

عمّ تبحثين في هذه الساعة؟

ريتا:

كنت أبحث عن... سأقول لك... فقد سمعنا ضجّة كبيرة...

سيمون:

صحيح؟

ريتا:

صحيح... ضجيج و...أنظر سيدي (ترفع القفص من على الأرض) كان قفص الطائر... لقد كان القفص، بلا شك... عجبا! أتسأل إن كان مات؟ ... إنّ الطائر حي، عجبا...لا بدّ أنّ الفاعل كان قطا. بالتأكيد.

سيمون:

نعم، قط مّا.

ريتا:

يا للطائر المسكين! إنّه ما زال مرعوبا!

سيمون:

معه حق... فلو إن القط تمكّن منه؟...

Twitter: @ketab_n

ريتا:

لكان أكله. (تعلّق القفص في مسمار في الحائط)

سيمون:

ومن دون صلصة... لما سلم منه حتى الريش.

دون ديغو:

هات القنديل.

ريتا:

آه! لا عليك سيدي، سأشعل هذه (تشعل الشمعة الموجودة فوق المنضدة)، فأنتَ لم تنم ...

دون ديغو:

ودونيا باكيتا؟ أهي نائمة؟

ريتا:

نعم سيّدي.

سيمون:

وبعمق، فالضجيج الذي أحدثه الطائر...

دون ديغو:

هيا بنا. (يدخل إلى حجرته ويدخل سيمون معه وهو يحمل شمعةً).

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد السادس

دونيا فرانثيسكا وريتا

دونيا فرانثيسكا:

(وهي تخرج من حجرتها) هل عثرتِ على الورقة؟

ريتا:

كلا سيدتي.

دونيا فرانثيسكا:

كانا موجودين عندما خرجتُ؟

ريتا:

لا أعرف. لكن الخادم جاء بضوء وفجأة وجدت نفسي بينه وبين سيده و لم أتمكن من الهرب ولا من تقديم مبررات. (تتناول الضوء وتعاود البحث عن الرسالة بالقرب من النافذة)

دونيا فرانثيسكا:

كانا هما بلا شك... ومن المؤكّد أنّهما كانا هنا عندما تكلمتُ من النافذة... وماذا عن الورقة؟

Twitter: @ketab_n

ريتا:

لا أجدها آنستي.

دونيا فرانثيسكا:

ربّما أخذاها، لا تتعبي حالك... هذا ما كان ينقص لكي تكتمل شقوتي... كفّي عن البحث. هي معهما.

ريتا:

هنا على الأقل...

دونيا فرانثيسكا:

أكاد أجنّ! (تجلس)

ريتا:

ومن دون أن يوضّح ذلك الرجل ولا حتى أن...

دونيا فرانثيسكا:

حين أوشكَ أن يتكلّم سمعت إشارتك واضطررنا إلى الانسحاب... ولكن أتعلمين كم كان خائفا ومضطربا وهو يكلّمني؟ قال لي إنّني في تلك الرسالة سأرى الأسباب الحقيقيّة التي تجبره على العودة، وبأنّه كتبها ليتركها مع شخص مخلص يسلّمها إليّ على افتراض أنّ لقاءه بي سيكون مستحيلا. كل ذلك خداع، ريتا، من رجل غدّار وعد بما لم يكن عازما على الإيفاء به... جاء ووجد رجلا آخر فقال لنفسه: و لمَ عليّ أن أزعج الآخرين أو أن أجعل من نفسي مدافعا عن امرأة؟...

Twitter: @ketab_n

وما أكثر النساء!... زوّجوها... فلن أفقد شيئا... وراحة بالي أولى باهتمامي من حياة هذه التعيسة ... غفرانك ربّي!... اغفر لي أنّني منحتُه كلّ هذا الحب!

ريتا:

أه آنستي! (وهي تنظر صوب حجرة دون دييغو). يبدو أنّهما يخرجان.

دونيا فرانثيسكا:

لا يهمّني. اتركيني.

ريتا:

لكن ماذا لو رآك دون دييغو على هذه الصورة...

دونيا فرانثيسكا:

لقد فقدتُ كلّ شيء، وما عدتُ أخشى شيئا... وهل تظنين أنّ فيّ نفسا لكي أنهض؟ ليأتيا، فلا شيء يهم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد السابع

دون دييغو وسيمون ودونيا فرانثيسكا وريتا

سيمون:

فهمت. لا حاجة للمزيد

دون دييغو:

انظر واطلب منهم أن يسرجوا (المورو)[٢٣] بينما تذهبُ أنتَ إلى هناك. إذا وجدتَ أنّهما خرجا فعدْ واركب الحصان وستلحق بهما إن أنتَ حثثت السير... فهما هنا إذاً ؟... انطلق ولا تضيّع وقتا. (بعد أن تكلّما وهما بالقرب من حجرة دون دييغو، ينصرف سيمون من باب المسرح الخلفي).

سيمون:

أنا ذاهب إلى هناك.

دون دييغو:

أنت تبكرين كثيراً، دونيا باكيتا؟

٢٣- المورو اسم الحصان، ومعناه يشير إلى أصله العربي أو إلى سواد لونه.

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

نعم سيدي.

دون ديبغو:

هل ناديت على دونيا إيرينه؟

دونيا فرانثيسكا:

كلا سيدي... من الأفضل أن تذهبي إليها فقد تكون استيقظت وتريد تبديل ملابسها. (تذهب ريتا إلى حجرة دونيا إيرينه).

Twitter: @ketab_n

المشهد الثامن

دون دييغو ودونيا فرانثيسكا

دون دييغو:

ألم تنامي جيدا هذه الليلة.

دونيا فرانثيسكا:

كلا سيدي. وأنتَ؟

دون دييغو:

ولا أنا.

دونيا فرانثيسكا:

كان الجو حارا.

دون دييغو:

هل أنت متوعكة؟

دونيا فرانثيسكا:

قليلاً.

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

.بماذا تشعرين؟ (يجلس إلى جانبها)

دونيا فرانثيسكا:

لا شيء... قليل من... لا شيء... لا أشعر بشيء.

دون ديغو:

هل من مشكلة؟ أراك مكتئبة باكية ومضطربة. ما بك يا باكيتا؟ ألا تعلمين أنّني أحبك كثيرا؟

دونيا فرانثيسكا:

بلى، سيدي.

دون ديغو:

إذاً لماذا لا تمنحينني المزيد من ثقتك؟ أتظنّين أنّني لن أسعد حين أحظى بفرصة لإرضائك؟

دونيا فرانثيسكا:

أعرف.

دون ديغو:

إن كنتِ تعلمين أنّ لك صديقا، فلم لا تفتحين قلبك له؟

دونيا فرانثيسكا:

لأنّ هذا هو ما يجبرني على السكوت.

Twitter: @ketab_n

دون ديبغو:

تقصدين أنّني أنا السبب في همّك؟

دونيا فرانثيسكا:

كلا سيدي. فأنت لم تسئ إليّ في شيء... أنا لا أشكو منك.

دون ديبغو:

ممّن إذاً، يا ابنتي؟... اقتربي... (يقترب منها أكثر). لنتكلّم ولو مرّة واحدة من دون لفّ ولا مداراة... خبّريني: أليس صحيحا أنّك تنظرين بشيء من النفور إلى هذه الزيجة المعروضة عليكِ؟ لو أنّك منحتِ حريّة الاختيار كاملة فكم هو احتمال ألا تتزوجي منّي؟

دونيا فرانثيسكا:

ولا من غيرك.

دونيا فرانثيسكا:

وهل يعقل ألا تعرفي رجلا آخر أكثر لطفا منّي يحبّك ويبادلك ما أنت أهلٌ له؟

دونيا فرانثيسكا:

لا يا سيّدي؛ لا يا سيّدي.

دون ديبغو:

فكّري في الأمرَ جيدا.

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

قلتُ لك أن لا شيء من هذا؟

دون ديغو:

وهل عليّ أن أخمّن أنّك اكتسبتِ هذا الميل من حياة العزلة التي نشأتِ فيها، حتّى صرتِ تفضلين تقشف الدير على حياة أكثر...؟

دونيا فرانثيسكا:

ولا هذا؛ لا يا سيّدي... لم أفكّر بهذه الطريقة قط.

دون ديغو:

لستُ مصرّا على معرفة المزيد... لكني بعد كلّ ما سمعته الآن أرى أنّ هناك تناقضا كبيرا. فأنت لست ميّالة إلى التدين في ما يبدو، وتؤكدين أن ليس لديك ما تشتكينه من ناحيتي، وأنّك واثقة من تقديري لك وأنّك لا تفكرين بالزواج من آخر وأن ليس عليّ أن أشك لأنّ ليس هناك من ينافسني عليك... فلم هذا البكاء؟ ومن أين يصدر هذا الحزن العميق الذي غيّر في هنيهة مظهرك حتّى أوشكتُ ألا أتعرّف إليك؟ أهي أمارات حبّك لي وحدي وزواجك منّي راضيّة بعد أيام قليلة؟ أهكذا تعبّرين عن الفرحة وعن الحب؟ (يضاء المسرح شيئا فشيئا موحيا بانبلاج الصبح)

دونيا فرانثيسكا:

وماذا بدر منّي لتشعر بسوء الظن هذا كلّه؟

Twitter: @ketab_n

دون ديبغو:

فماذا إذاً؟ إن أنا نحّيت هذه الأفكار جانبا، وعجّلت في ترتيبات زواجنا، واستمرّت والدتك على تبريره ثم وصلنا إلى ...

دونيا فرانثيسكا:

سأفعل ما تأمرني به أمّي وسأتزوّج منك.

دون ديبغو:

وبعد ذلك، باكيتا؟

دونيا فرانثيسكا:

بعد ذلك... وسأكون زوجة صالحة ما دمت حيّة.

دون ديبغو:

هذا ما لا أشكّ فيه... لكن إن كنتِ ترين في شخصي ما يجب أن يكون عليه رفيقك وصديقك حتى الموت، فقولي لي: ألا تعطيني هذه الصفات بعض الحق في أن أحظى منك بثقة أكبر؟ أليس من حقي عليك أن تخبريني بسبب ألمك؟ ليس إرضاء لفضولي وإلحاحي، بل لكي أعدّ العدّة لتسليتك وإرضائك وإسعادك، إن كانت همّتي ووسائلي تسمح بذلك القدر.

دونيا فرانثيسكا:

سعادتي؟... لقد انتهت السعادة.

Twitter: @ketab_n

دون ديبغو:

لماذا؟

دونيا فرانثيسكا:

لن أصرّح لك بالسبب.

دون ديبغو:

لكن، لمَ هذا الصمت العنيد المتهوّر!... وأنتِ التي عليك أن تفترضي أنني لستُ في غفلة عمّا يجري.

دونيا فرانثيسكا:

إن كنتَ تجهلُه، سألتك الله دون ديبغو ألا تدّعي معرفته. وإن كنتَ تعلمه حقّا فلا تسألني عنه.

دون ديبغو:

حسنا، إن لم يبق ثمّة ما نقول، وإن كان هذا الحزن بلا سبب وهذه الدموع لا إراديّة، فاليوم سنصل إلى مدريد، وبعد ثمانية أيام ستكونين زوجتي.

دونيا فرانثيسكا:

وسأرضي والدتي.

دون ديبغو:

وستعيشين شقيّة.

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

أعرف ذلك.

دون ديغو:

هذه هي ثمار التربية. هذا هو ما نسميه تربية الفتاة تربية الجيدة: أن نعلمها الكذب والخداع والمداراة على مشاعرها البريئة. نحكم عليها بالاستقامة، إذ نراها تتقن فنّ السكوت والكذب. نصرّ على أنّ ليس للمزاج ولا للسنّ ولا للطبع تأثيرا على ميولها أو نسعى إلى أن تنثني إرادتها أمام من يحكمها. نسمح لها بكل شيء إلا الصدق. فإن كتمتْ مشاعرها وتظاهرت بالنفور ممّا ترغب فيه وأبدت استعدادا لقول «نعم» حانثة مدنّسة هي الأصل في مشاكل كثيرة، فهي بنت حسنة التربية، امّا التربية الممتازة عندنا فهي التربية التي تبعث فيها خوف العبد ومكره وسكوته.

دونيا فرانثيسكا:

هذا صحيح... كل هذا صحيح... هذا ما يريدونه منّا نحن الفتيات، وهذا هو ما نتعلمه في المدرسة... لكنّ سبب حزني أكبر من ذلك بكثير.

دون ديغو:

مهما كان السبب فمن الضروري يا بنيّتي أن تستعيدي حيويتك ونشاطك... إن رأتك والدتك على هذه الصورة فماذا ستقول؟ ... يبدو أنّها استيقظت.

دونيا فرانثيسكا:

يا إلهي!

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

نعم، باكيتا؛ من المناسب أن تعودي إلى نفسك... ألا تهمليها كثيرا... ضعي ثقتك بالله... فليست مصائبنا دائما بالضخامة التي يرسمها لنا خيالنا... انظري أيّة فوضى هذه! أيّ اضطراب! أيّة دموع! عجبا. أتعدينني أن تكوني هكذا...، مطمئنة و...؟

دونيا فرانثيسكا:

وأنت سيدي... تعرف جيدا حدّة والدتي. فإن لم تدافع أنتَ عنّي فإلى من أتوجّه؟ ومن سيشفق على بائسة مثلي؟

دون ديغو:

صديقك المخلص... أنا... كيف لي أن أتركك... أيتها المخلوقة!... في هذه الحالة المؤلمة التي أراك عليها؟ (يمسك بيديها)

دونيا فرانثيسكا:

حقّا؟

دون ديغو:

ما أقلّ ما تعرفين قلبي!

دونيا فرانثيسكا:

أعرفه جيدا. (تحاول أن تجثو على ركبتيها، لكنّ دون ديغو يمنعها وينهضان معا)

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

ماذا تفعلين أيتها الصغيرة؟

دونيا فرانثيسكا:

لا أدري... ما أقلّ ما تستحق من هذه الطيبة امرأة ناكرة لجميلك!... إنّها ليست ناكرة للجميل، بل شقيّة... آه! كم أنا شقيّة سيدي!

دون ديغو:

أعرف أنّك تقدّرين الحبّ الذي أحمله لك بكلّ ما تستطيعين ... أمّا ما عدا ذلك فقد كان...لا أدري... غلطة منّي وليس شيئا آخر... أمّا أنتِ فبريئة ولا ذنب لك.

دونيا فرانثيسكا:

هيّا... ألا تأتي حضرتك؟

دون ديغو:

ليس الآن ، باكيتا. سآتي بعد قليل.

دونيا فرانثيسكا:

تعال بسرعة. (تتجه صوب حجرة دونيا إيرينه ثمّ تعود لتودع دون ديغو وتقبّل يديه)

دون ديغو:

أجل. سآتي بسرعة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد التاسع

سيمون ودون دييغو

سيمون:

سيدي إنّهما هنا.

دون دييغو:

ماذا تقول؟

سيمون:

عندما خرجت من الباب شاهدتهما من بعيد وهما منطلقان في الطريق. ناديتهما ولوّحتُ لهما بالمنديل فتوقفا، وما إن وصلتُ وبلّغتُ السيّد ما أمرتني به حتّى أدار العنان، وهو الآن تحت. لقد طلبتُ منه ألا يصعد حتّى أعلمه بذلك، فلربّما كان هناك أشخاص لا تريد أن يروه.

دون دييغو:

وماذا قال حين سلّمته الخطاب؟

سيمون:

لم يتفوّه بكلمة... وجاء ميتا... نعم... لم ينطق بكلمة... لقد أثار شفقتي أن أراه هكذا بالغ الـ ...

Twitter: @ketab_n

دون ديغو:

لا تبدأ بالتدخل لصالحه.

سيمون:

أنا سيّدي؟

دون ديغو:

نعم، أنا لا أفهم سبب إشفاقك عليه ! ... إنّه صعلوك.

سيمون:

أنا لا أعرف ماذا فعل...

دون ديغو:

ما هو إلا مكّار، يريد أن يسلبني حياتي... وقد قلت لك إنّني لا أريد شفعاء.

سيمون:

حسنا، سيدي. (يذهب من باب المسرح الخلفيّ. أمّا دون ديغو فيجلس ويظهر عليه القلق والغضب)

دون ديغو:

قل له أن يصعد.

Twitter: @ketab_n

المشهد العاشر

دون كارلوس ودون دييغو

دون دييغو:

تقدّم أيّها السيّد؛ تعال... أين كنتَ منذ أن تفارقنا؟

دون كارلوس:

في الخان خارج البلدة.

دون دييغو:

و لم تغادره طوال الليل؟ أليس كذلك؟

دون كارلوس:

بلى سيدي. لقد عدّتُ إلى المدينة و...

دون دييغو:

لماذا؟... تفضّل بالجلوس

دون كارلوس:

كانت بي حاجة إلى أن أتكلّم مع شخص...(يجلس)

Twitter: @ketab_n

دون ديبغو:

حاجة!

دون كارلوس:

نعم سيدي... شخص أدين له بالكثير من الالتزامات، وما كان ممكنا أن أعود إلى سرقسطة من دون أن أراه.

دون ديبغو:

ففي الأمر إذن التزامات كثيرة... لكن... أليس من الخطأ أن تأتي لزيارته الساعة الثالثة فجرا... لماذا لم تكتب له ورقة؟...أنظر، ماذا لديّ... بهذه الورقة، التي كان يمكنك أن ترسلها له في مناسبة أفضل، ما كنتَ ستضطرّ إلى السهر ولا إلى إزعاج أحدا. (يناوله الورقة التي رموها من النافذة. دون كارلوس، بعد تفحصها، يعيدها إليه وينهض ليهمّ بالانصراف).

دون كارلوس:

إذا كنت عارفا بكل هذا فلماذا ناديتني؟ لماذا لا تسمح لي بمواصلة طريقي وتتجنب هكذا ردّا لن يروق لأي منّا سماعه؟

دون ديبغو:

يريد عمّك أن يعرف ما كُتب هنا، ويريد أن يسمع ذلك منك.

دون كارلوس:

ولماذا تريد أن تعرف المزيد؟

Twitter: @ketab_n

دون دييغو:

لأنّني أريد ذلك وآمر به.

دون كارلوس:

حسنا!

دون دييغو:

اجلس عندك...(يجلس دون كارلوس). أين تعرّفتَ إلى هذه الفتاة؟... وأي حبّ هذا الذي بينكما؟ وفي أيّة ظروف جرى؟... وأيّة علاقة تربطكما؟ وأين رأيتها ومتى؟

دون كارلوس:

في العام الماضي، وأنا عائد إلى سرقسطة، وصلت إلى (غوادا لاخارا). و لم أكن راغبا في المكوث فيها؛ لكن رئيس الإدارة، الذي نزلنا في بيته الريفي، ألحّ عليّ كي أبقى ذلك اليوم عنده للاحتفال بعيد ميلاد زوجته، على وعد أن يدعني أواصل سفرتي في اليوم التالي. وهناك رأيت دونيا باكيتا بين المدعوين، وكانت السيدة قد أخرجتها من الدير ذلك اليوم لتروّح عن نفسها قليلا... لقد رأيتُ فيها ما أثار فيّ اضطرابا ورغبة ملحّة في أن أتطلّع إليها وأسمع صوتها وأظلّ إلى جانبها وأتحدّث معها وأبدوَ لطيفا في عينيها... لقد قال لي رئيس الإدارة مازحا... إنّني عاشق، وبدا له أن يدعوني باسم دون فيليكس دي توليدو، [وهو اسم أطلقه كالديرون[٢٤] على بعض العشّاق في مسرحياته]. استهواني الدور وتقبّلت

٢٤- كالديرون هو كالديرون دي لا باركا Calderón de la Barca (١٦٠٠ - ١٦٨١) أحد أبرز كتّاب المسرحية الإسبان.

Twitter: @ketab_n

فكرة البقاء في تلك المدينة لأيام، وتجنّبتُ أن يصل ذلك إلى علمك... لاحظت أنّ دونيا باكيتا عاملتني بلطف خاص، ولمّا افترقنا مساءً كان الزهو والأمل يملآني وأنا أرى نفسي المفضّل من بين جميع الحاضرين في تلك الليلة، وكانوا كثيرين. المهم... أنا لا أريد أن أجرحك وأشير إلى ...

دون ديغو:

استمر

دون كارلوس:

علمتُ أنّها ابنة سيدة من مدريد، أرملة فقيرة، لكنّها من أسرة كريمة... وكان ضروريا أن أسرّ لصديقي خطط الحب التي تلزمني البقاء معه، فتكفّل هو، من دون أن يدعم خططي ولا أن يعارضها، بالبحث لي عن الأعذار، أعذار ذكيّة، كي لا يستغرب أي من أفراد عائلته بقائي. ولمّا كان البيت الريفي قريبا من المدينة، فقد كان سهلا عليّ التنقل مساءً ذهابا وإيابا... وتمكنت من إيصال بعض الرسائل إلى دونيا باكيتا، وبالردود القليلة التي وصلتني منها انتهى بي الأمر إلى الوقوع في غرام سيكون السبب في شقائي ما دمت حيّا.

دون ديغو:

عجبا... هيّا، استمر.

دون كارلوس:

وسهّل مساعدي، وهو كما تعلم رجل مغامر ومجرّب، العراقيل الكثيرة التي واجهتنا في البداية بألف حيله وحيلة... كانت الإشارة

Twitter: @ketab_n

بيننا بالتصفيق ثلاث مرات وتلقّي الردّ بثلاث مثلها من نافذة تطلّ على حظيرة الراهبات. كنّا نتبادل الكلام كل ليلة، في ساعة متأخرة، وبالحيطة والحذر الواجبين... كنتُ دائما بالنسبة إليها دون فيليكس دي توليدو، ضابط من ضباط إحدى الحاميات، ورجل شريف يحترمه رؤساؤه... لم أخبرها قط بأكثر من هذا، لم أكلّمها عن أقاربي ولا عن آمالي، و لم أعدها بأنّها ستنال ثروة كبيرة إن هي رضيت بي زوجا؛ إذ لم أشأ أن أذكر لها اسمك، ولا أن أجعلها تعتمد التفكير في المنافع، وليس في الحب، معيارا لتفضيلي. كنتُ أراها في كلّ مرّة أرقّ وأجمل وأجدر بأن تُحبّ وتُعشق ... بقيت هناك ما يقرب من ثلاثة أشهر؛ ثمّ اضطررنا إلى أن نفارق بعضنا، ودّعتها في ليلة نحس وتركتها فريسة إحساس قاتل باليأس والإحباط، وانصرفتُ إلى حيثُ كان الواجب يدعوني، وغشاوة الحب تعمي بصري... رسائلها كانت سلوتي لوقت من الأوقات، وقد أخبرتني في واحدة منها، تلقيتها من أيام قليلة، أنّ أمّها تحاول تزويجها وأنّها تفضّل الموت على تسليم نفسها إلى غيري وتذكّرني بقسمي وتحثّني على الوفاء به... ركبت فرسي وذهبتُ مسرعا إلى (غوادا لاخارا) فلم أعثر عليها، ثمّ أتيت إلى هنا... والبقية تعرفها جيدا ولا حاجة بي إلى ذكرها لك.

دون دييغو:

وما كان هدفك من قدومك إلى هنا؟

دون كارلوس:

أن أواسيها وأن أجددَ قسمي بحبي الأبديّ لها، ثم الذهاب إلى مدريد كي أزورك وأجثو عند قدميك وأقصّ عليك ما حدث وأطلب

Twitter: @ketab_n

منك، لا المال ولا الإرث ولا الحماية ولا أي شيء من هذا، بل موافقتك ومباركتك لعقد الرباط المنتظر، الذي بنينا عليه أنا وهي كلّ سعادتنا.

دون ديغو:

لكن ألا ترى يا كارلوس أنّ الوقت قد حان لأن تفكّر بطريقة مغايرة تماما.

دون كارلوس:

بلى سيدي.

دون ديغو:

إن كنتَ تحبّها، فأنا أحبها أيضا. أمّها وكل عائلتها يباركون هذا الزواج. أمّا هي... فمهما كانت الوعود التي قطعتْها لك... هي بنفسها قالتْ لي منذ نصف ساعة بأنّها مستعدة لطاعة أمّها وأن تمنحني يدها، و...

دون كارلوس:

لكن ليس قلبها (ينهض)

دون ديغو:

ماذا تقول؟

دون كارلوس:

لا، هذا لا... ستكون هذه إهانة لها... أنت ستحتفل بالعرس متى شئت؛ وهي ستتصرّف دائما بما تملي عليها استقامتها وأخلاقها؛ ولكنّي

Twitter: @ketab_n

كنتُ الأوّل، وكنتُ حبّها الوحيد... وما زلتُ وسأظلّ كذلك... أنتَ ستُدعى زوجها؛ لكنّك إن فاجأتها مرّة أو مرّات وعيناها الفاتنتان غارقتين بالدموع فاعلم أنّها تذرفها من أجلي... لا تسألْها أبدا عن سبب حزنها... فأنا سبب حزنها... أمّا تنهداتها، التي ستحاول عبثا كبتها ومداراتها، فستكون رسائل حبّ موجّهة إلى صديق غائب.

دون ديبغو:

أيّة جسارة هذه؟ (ينهض غاضبا، ويسير صوب دون كارلوس، الذي يتراجع)

دون كارلوس:

لقد نبّهتك...كان مستحيلا أن أقول شيئا من دون أن أجرحَ مشاعرك... لكن لننته من هذا الحوار المقيت... عش سعيدا ولا تنفر منّي، إذ لم أقصد إزعاجك إطلاقا...وأكبر دليل يمكنني تقديمه على طاعتي واحترامي هو أن أخرج من هنا في الحال...لكنْ لا تحرمني من أنّ أمنّي النفس بصفحك وعفوك.

دون ديبغو:

أأنت ذاهبٌ فعلا؟

دون كارلوس:

في الحال، سيّدي...وسيكون غيابي هذه المرة طويلاً جداً.

دون ديبغو:

لماذا؟

Twitter: @ketab_n

دون كارلوس:

من غير المناسب أن أراها بعد الآن... وإن صدقت الشائعات عن حرب وشيكة... عندها...

دون دييغو:

ماذا تقصد؟ (يمسك بذراع دون كارلوس ويدنيه إليه)

دون كارلوس:

لا شيء...أنا راغب في القتال لأنني جندي.

دون دييغو:

كارلوس!...يا للهول... وتمتلك القلبَ لتقول لي ذلك؟

دون كارلوس:

أحد ما يقترب...(ينظر صوب حجرة دونيا إيرينه، يتملص من دون دييغو ويمثّل أنّه ذاهب نحو باب المسرح الخلفي. يلحقه دون دييغو ويحاول إيقافه) قد تكون هي...في رعاية الله.

دون دييغو:

إلى أين تذهب؟ لا...لا. ما عليك أن تذهب.

دون كارلوس:

لا بدّ من ذلك... يجب ألا أراها... فنظرة منّا يمكن أن تحدث في نفسك شعورا قاسيا.

Twitter: @ketab_n

دون دييغو:

قلت لك ألا تذهب...ادخل في تلك الحجرة.

دون كارلوس:

لكن إذا...

دون دييغو:

أفعل ما آمرك به.

(يدخل دون كارلوس في حجرة دون دييغو)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الحادي عشر

دونيا إيرينه ودون دييغو

دونيا إيرينه:

دون دييغو، فإذاً حانت ساعة سفرنا؟... صباح الخير (تطفئ القنديل الذي على المنضدة) هل تصلّي؟

دون دييغو:

(يسير بقلق) أنا في طريقي إلى ذلك.

دونيا إيرينه:

يمكنهم، إن شئت، أن يجهزوا الشوكولاته وأن يبلغوا الحوذي لكي يربطوا بعد... ولكن، ماذا لديك سيّدي؟... هل من جديد؟

دون دييغو:

نعم، فالأخبار تتوالى.

دونيا إيرينه:

وما هي؟ خبّرني بحق الله...! يا إلهي!، يا إلهي! لو تعلم مقدار

Twitter: @ketab_n

خوفي... فكلّ ما هو فجائي يهزّني و... منذ آخر ولادة عسيرة حدثت لي وأنا مرهفة الأعصاب... ها قد مرّت تسع عشرة سنة، إن لم تكن عشرين؛ منذ ذلك الحين صارت أيّة تفاهة تقلب كياني...و لم تنفعني لا الحمامات ولا حساء الأفعى ولا محفوظ التمر هندي حتّى أنّني...

دون ديبغو:

دعينا من الكلام عن الولادة العسيرة وعن المعلّبات المحفوظة... فلدينا ما هو أهم... ماذا تفعل الفتيات؟

دونيا إيرينه:

إنّهن يجمعن الملابس ويرتبن الصندوق لكي يكون كل شيء جاهزا من دون تأخير.

دون ديبغو:

حسن جدا. تفضّلي بالجلوس... ما عليك أن تخافي ولا أن تفزعي (يجلس الاثنان) لأي شيء مما سأقول، ولنتجمّل بالعقل حين نكون في أمسّ الحاجة إليه... ابنتك مغرمة...

دونيا إيرينه:

ألم أقل لك ذلك ألف مرّة؟ أنّها مغرمة وكان يكفي أن تسمع منّي ذلك لكي...

دون ديبغو:

يا لعادتك الذميمة في المقاطعة بعد كلّ كلمة! دعيني أتكلّم.

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

حسنا. تكلّم.

دون ديغو:

أنها مغرمة، لكنّها ليست مغرمة بي!

دونيا إيرينه:

ماذا تقول؟

دون ديغو:

ما سمعتِ.

دونيا إيرينه:

ومن قصّ عليك هذه الترهات؟

دون ديغو:

لا أحد. أنا رأيتُ ذلك و لم أسمع من أحد، وعندما أخبرك بذلك فلأنني متأكّد من حقيقة ما أقول... عجبا، و لم البكاء؟

دونيا إيرينه:

(تبكي) يا لشقائي!

دون ديغو:

و لمَ البكاء؟

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

يبدو أن الجميع يزدرونني ويتآمرون عليّ لأنّي أرملة مسكينة، بلا عضد ولا حول.

دون ديغو:

سيدة إيرينه...

دونيا إيرينه:

في نهاية حياتي ومع ما أعاني من آلام ومرض يعاملونني هكذا مثل خرقة بالية أو مثل امرأة قذرة مظلومة، قل لي... من يصدّق ما تقول؟ رحماك ربّي!... لو كان موتاي الثلاثة أحياء!... أمّا آخر مَن عشتُ معه فكان له مزاج كمزاج الأفعى...

دون ديغو:

أسمعيني سيدتي، فقد بدأ صبري ينفد.

دونيا إيرينه:

لكانَ ردّ عليك أو لصار قطعة من نار جهنّم. لقد أشبعَ في يوم من أيّام عيد القربان، ولا أعلم لأيّ أمر تافه، مفوضا حكوميا ضربا، ولولا تدخّل راهبين من رهبان الكارمن لحطمه بعامود بوابات سانتا كروث.

دون ديغو:

هلّا استمعتِ إلى ما سأقوله لك؟

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

آي! كلا سيدي؛ أنا أعرف الأمر جيدا، فأنا لست غبيّة، لا سيدي... أنتَ ما عدتَ راغبا في البنت وتبحثُ عن حجج للتهرب من الالتزام الذي... يا ابنة روحي وقلبي!

دون ديغو:

هلاّ تكرّمتِ، سيّدتي، بسماعي، بعدم مقاطعتي، بعدم التفوّه بكلام غير مناسب، وبعد أن تعرفي بالأمر لك أن تبكي وتولولي وتصرخي وتقولي ما بدا لك...ولكن في هذه الأثناء، لا تزيدي من معاناتي ناشدتك الله.

دونيا إيرينه:

قل ما بدا لك.

دون ديغو:

لكن لن نعاود البكاء و...

دونيا إيرينه:

كلا سيدي؛ لن أبكي. (تمسح دموعها بمنديلها)

دون ديغو:

منذ عام تقريبا وباكيتا تحبّ شخصا آخر. لقد تبادلا الحديث مرات كثيرة وتراسلا وتعاهدا على الحب والإخلاص والوفاء... وبينهما مودّة عميقة لم تفلحْ المصاعب ولا البعد في طمسها، بل لقد أسهمت في نموّها. وعلى هذا ...

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

أنت لا تعرف... كلّ ذلك إشاعة أطلقها لسان سوء لا يريد الخير لنا؟

دون ديغو:

ها قد عدنا من جديد... لا سيدتي؛ ليست هذه نميمة. أكرّر القول بأنّني أعرف بالأمر.

دونيا إيرينه:

ماذا تعرف سيدي؟ كم في ذلك من الحقيقة؟ ابنة أحشائي المحبوسة في الدير، الصائمة أيام الجمعة السبعة بعد عيد القيامة، المقيمة مع أولئك القديسات الورعات! ابنتي التي لم تعرف الدنيا و لم تخرج بعدّ، كما يقال، من قشرتها! واضح أنّك لا تعرف طبع (ثيركونثيسيون)...ما أقلّ ما تتسامح مع ابنة أختها لأدنى زلّة!

دون ديغو:

أنا لا نتكلّم عن زلّة، سيدة إيرينه؛ بل عن ميل شريف لم نشهدْ له مثيلا. أبنتك فتاة مستقيمة جدا ولا طاقة بها على الزلل... ما أقوله هو أنّ الأم (ثيركونثيسيون) و(سوليداد) و(كانديلاريا) وكل الأمّهات وأنت، وأنا أولكم، قد أخطأنا خطأ كبيرا. البنت لا تريد الزواج منّي بل من شخص آخر... لقد وصلنا متأخرين، أنتِ لم تحسبي حسابا لرأي ابنتك... عجبا! فلماذا نتزوّج؟ اقرئي هذه الورقة وسترين إن كنت على حق. (يخرج ورقة دون كارلوس ويسلّمها إلى دونيا إيرينه. تنهض هي مضطربة من دون أن تقرأ الرسالة وتقترب من باب حجرتها وتنادي. ينهض دون ديغو ويحاول عبثا السيطرة عليها)

Twitter: @ketab_n

دونيا إيرينه:

سأجن لا محالة!... فرانثيسكا! يا عذراء الترميدال[٢٥] ... ريتا! فرانثيسكا!

دون ديغو:

لكن، لم تنادين عليهنّ؟

دونيا إيرينه:

نعم سيدي، أريد أن تأتيَ المسكينة لتعرفك على حقيقتك.

دون ديغو:

لقد انهار كل شيء... هذه هي عاقبة الوثوق بحكمة امرأة.

٢٥- الترميدال Tremedal: من أعمال محافظة (ترويل) Teruel التابعة لإقليم أراغون. أمّا «عذراء الترميدال» فهو مزار فيها للعذراء المسماة بهذا الاسم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الثاني عشر

دونيا فرانثيسكا وريتا ودونيا إيرينه ودون دييغو

(تخرج دونيا فرانثيسكا وريتا من حجرتهما)

ريتا:

سيدتي.

دونيا فرانثيسكا:

هل ناديتني؟

دونيا إيرينه:

نعم يا ابنتي؛ لأن السيد دون دييغو يعاملنا بطريقة ما عدتُ أحتملها. ما قصة غرامياتك يا ابنتي؟ لمن أعطيت وعدا بالزواج؟ وأيّة مكائد هذه؟... وأنت، أيتها الصعلوكة... أنت أيضا تعلمين بالأمر... لا شكّ أنّك تعلمين بالأمر...من كتب هذه الورقة؟ وماذا يقول فيها؟ (تعرض الورقة مفتوحة على دونيا فرانثيسكا)

ريتا:

(على انفراد لدونيا فرانثيسكا). إنه خطّه.

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

يا للخبث!... سيدي دون ديبغو، أهكذا تفي بوعدك؟

دون ديبغو:

يعلم الله أنّ الذنب ليس ذنبي... تعالي هنا. (يأخذ دونيا فرانثيسكا من يدها ويجلسها إلى جانبه) لا عليك أن تخافي... وأنت، سيدتي، اسمعي واصمتي ولا تجعليني أفقد أعصابي... اعطني هذه الورقة... (يأخذ الورقة منها). تذكرين يا باكيتا الصفقات الثلاث التي وصلت مسامعنا هذه الليلة.

دونيا فرانثيسكا:

سأذكرها ما حييت.

دون ديبغو:

هذه هي الورقة التي ألقي بها عبر النافذة... لا داعي للفزع، وقد قلتُ ذلك. (يقرأ): حياتي. إن لم أفلحْ في الحديث معك، فسأفعل ما في وسعي لإيصال هذه الرسالة إليك. حين فارقتُك وجدتُ في النُزُل من كنتُ أدعوه عدوّي، ولا أدري كيف لم أمتْ ألما حين رأيته. لقد أمرني أن أتركَ المدينة فورا وكان واجبا عليّ أن أطيعه. اسمي هو دون كارلوس وليس دون فيليكس، ودون ديبغو هو عمّي. دمت في سعادة وانسيْ وإلى الأبد صديقك الشقي.– كارلوس دي أوربينا

دونيا إيرينه:

فالأمر هكذا إذاً؟

Twitter: @ketab_n

دونيا فرانثيسكا:

يا لشقائي!

دونيا إيرينه:

فما قاله دون دييغو إذاً صحيح أيتها الصعلوكة الكبيرة؟ لن تنسي هذا... (تتوجّه غاضبة صوب دونيا فرانثيسكا بنيّة ضربها. ريتا ودون دييغو يمنعانها)

دونيا فرانثيسكا:

صفحك... أمّي!

دونيا إيرينه:

كلا سيدي؛ لا بدّ من أن أقتلها.

دون دييغو:

ما هذا الجنون؟

دونيا إيرينه:

عليّ أن أقتلها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المشهد الثالث عشر

دون كارلوس ودون دييغو ودونيا إيرينه ودونيا فرانثيسكا وريتا

(يخرج دون كارلوس من الحجرة مسرعا، يأخذ بيد دونيا فرانثيسكا ويسير بها إلى مؤخرة خشبة المسرح ويقف أمامها للدفاع عنها. تفزع دونيا إيرينه وتتراجع)

دون كارلوس:

ليس لأحد أن يهينها في حضوري.

دونيا فرانثيسكا:

كارلوس!

دون كارلوس:

(مخاطبا دون دييغو) اعذر لي جرأتي... فقد رأيت أنّهم يسيئون إليها و لم أستطع ضبط نفسي.

دونيا إيرينه:

ما الذي يجري إلهي؟ مَن يكونُ هذا؟... وما هذه الأفعال؟... يا للفضيحة!

Twitter: @ketab_n

دون دييغو:

ما من فضيحة... وهذا هو مَن تعشقه ابنتك... التفريق بينهما وقتلهما سواء... كارلوس... لا تقلق... عانق زوجتك.

(يتعانق دون كارلوس ودونيا فرانثيسكا ثم يجثوان عند قدمي دون دييغو)

دونيا إيرينه:

هو إذاً ابن أخيك؟

دون دييغو:

نعم سيدتي، إنه ابن أخي، الذي أذاقني بضربات كفيه وموسيقاه وورقته أسوأ ليلة مرّت عليّ في حياتي...ما هذا، يا أولادي، ما هذا؟

دونيا فرانثيسكا:

فأنت تسامحنا وتهبنا السعادة؟

دون دييغو:

نعم أحباء روحي... نعم. (يطلب منهما النهوض بإيماءة حنون)

دونيا إيرينه:

وهل يمكنك بذل هذه التضحية؟

دون دييغو:

كان في مقدوري أن أفرّق بينهما إلى الأبد وأن أحوز هذه البنت

Twitter: @ketab_n

اللطيفة، لكنّ ضميري لن يحتمل ذلك... كارلوس!... باكيتا! كم هو مؤلم ما تخلّفه هذه التضحية في نفسي!... إنّني، في نهاية المطاف، رجل شقيّ وضعيف.

دون كارلوس:

إن كان حبنا (يقبّل يديه) وشكرنا يكفيان لتعويضك عن هذه الخسارة الكبيرة...

دونيا إيرينه:

يا لطيبة قلبك دون كارلوس!... عجبا

دون ديبغو:

كان هو وابنتك يهيمان حبّا، بينما كنتِ أنتِ وخالاتها تشيدنَ قصورا في الهواء وتملأن رأسي بالأوهام... هذه هي عاقبة تعسّف الآباء ... وهذا هو الظلم الذي يحيق بالشباب... وهذه هي الضمانات التي يقدّمها أولياء الأمور... وهذه هي نتيجة الركون إلى كلمة «نعم» التي تقولها الفتيات...لقد تنبّهتُ بالصدفة، وفي الوقت المناسب، إلى الخطأ الذي وقعتُ فيه... فويل للذين لا يتنبّهون إليه إلا بعد فوات الأوان!».

دونيا إيرينه:

ليجعلهما الله صالحين، ولينعم عليهما بالسعادة لسنوات وسنوات... تعال هنا أيها السيّد، تعال، أريد أن أعانقك. (تعانق دون كارلوس. بينما تحثو دونيا فرانثيسكا على ركبتيها وتقبّل يد أمّها) يا بنيّتي فرانثيسكا. عجبا! ما أحسن اختيارك!... إنّه شاب وسيم... أسمر ونظرة عينيه ساحرة.

Twitter: @ketab_n

ريتا:

نعم، قولي لها ذلك، فابنتك لم تلاحظْه...آنستي، مليون قبلة (تتبادل دونيا فرانثيسكا وريتا القبلات)

دونيا فرانثيسكا:

ألا ترين كم هي كبيرة فرحتي؟...وأنتِ التي أحببتني كلّ هذا الحبّ ستكونين صديقتي على الدوام.

دون ديغو:

باكيتا الرائعة (يحتضن دونيا فرانثيسكا)، تقبّلي أول عناق من والدك الجديد... ما عدت أخشى الوحدة المرعبة التي كانت تهدد شيخوختي... فأنتما (يمسك بيدي دونيا فرانثيسكا ودون كارلوس) ستكونان متعة حياتي؛ وأولى ثمار حبكما... يا أولادي، ستكون بلا أدنى شك من حصّتي. سأستطيع القول، حين أحمل طفلكما بين يدي لأداعبه، بأنّ ذلك المخلوق البريء يدين لي بوجوده، ويدين لي والداه بحياتهما وسعادتهما.

دون كارلوس:

مباركة هذه الطيبة!

دون ديغو:

بل مباركة طيبة الله!

النهايـــة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لياندرو فرنانديث دي موراتين

«ستكونين يا ابنتي كالسمكة في الماء؛
ولو تشهّيت طيورَ السماءِ فستحصلينَ
عليها...»
من دون أن تنسى أن تحثها على الكلام
وتعنّفها على سكوتها وتمنّعها:
«ألا تقولين شيئا!...هلاّ رددتِ عليّ
بكلمة...!» وتقف البنت مشتتة الفكر
حائرة القلب والهة الفؤاد لا تجد من تبث
إليه حزنها وتستودعه سرّها غير وصيفتها:
وتقف البنت مشتتة الفكر حائرة القلب والهة الفؤاد لا تجد من تبث إليه
حزنها وتستودعه سرّها غير وصيفتها:
«لو أنّك رأيتِ أمّي... إنّها مصمّمة على أن أحبّ ذاك الرجل... لو أنّها
تعلم ما تعلمين لما طلبت منّي أشياء مستحيلة...»
لكن المستور سرعان ما ينكشف، والأوراق سرعان ما تختلط لتظهر الحقيقة
ويعود الحق إلى مثابته. فيثور الشيخ في البدء:
«ألومُ مَن؟ وأصبّ غضبي على مَن؟»
ثمّ يتراجع ويتأمّل:
«أهذا هو ما ندعوه تربية الفتاة تربية جيدة؟ أن نعلمها الكذبَ
والخداعَ والمداراة على مشاعرها البريئة...؟»

■ المترجم

ISBN 978-2-843090-91-2

9 782843 090912

The Refusal from Burns's Song of Duncan Gray. لوحة الفارس